

بحوث في القرآن الحكيم

المرجع الديني
آية الله العظمى السيّد محمد تقي المدرسي

بحـوث
في القرآن الحكيم

المرجع الديني
آية الله العظمى السيّد محمّدتقي المدرسي

المدرسي، محمّدتقي، ١٩٤٥م - Mudarrisi, Muhammad Taqi
بحوث في القرآن الحكيم / محمّدتقي المدرسي. - قم: انتشارات محبّان الحسين ؏
١٤٢٠ق = ٢٠٠٠م.
١٥١ ص. ISBN: 964 - 5648 - 62 - 9
فهرستنويسي براساس اطلاعات فيپا. عربی
كتابنامه: به صورت زير نويس. چاپ چهارم ١٣٨٤
١. قرآن -- تحقيق. الف. العنوان.
٣٤ب٤٤م/BP٦٥/٤ ٢٩٧/١٥
كتابخانه ملی ايران ٢٢٩٤٤ - ٧٨م

انتشارات محبان الحسين

بحوث في القرآن الحكيم
آية الله العظمى السيّد محمّدتقي المدرسي
الناشر: انتشارات محبان الحسين ؏
الطبعة الرابعة: ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م - ٥٠٠٠ نسخة
العنوان: قم المقدسة - شارع انقلاب - فرع ٤٧ - رقم ٥

ردمك: ٩-٦٢-٥٦٤٨-٩٦٤	ISBN: 964 - 7373 - 62 - 9

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله المعصومين.

أمام الأمة الاسلامية- وهي تواجه الحضارة الغربية بكل أبعادها - أمامها واحد من أمرين: الاستسلام للكارثة الحضارية أو محاولة بناء حضارة اسلامية.

وإذا كانت الكارثة أخطر ما تخشاها الأمة فإن علينا السؤال عن الوسيلة التي لابد أن نصوغ بها الحضارة الاسلامية؟

والجواب بسيط، إلا أن القيام به مستصعب جداً؛ ان الوسيلة الوحيدة لذلك: تطهير الحضارة الغربية من سلبياتها المادية ثم تطعيم الفكر الإسلامي بها، وتتبع هذه العملية الخطوات التالية:

١- العودة الى المصادر الإسلامية واستنباط الجوهرة النقية منها.

٢- العودة الى عناصر الحضارة الحديثة وتقييمها وفق مقاييس تلك الجوهرة.

٣ - استنباط التفاصيل عن هاتين الجوهرتين.

وستكون العملية صعبة جداً، لا لأنها ستحتاج الى دراسات مُضنية فقط، بل وايضاً لأنها تفرض على القائمين بها التمتع بصفات نفسية معينة، هي التالية:

أ- الشعور العميق بضرورة الحضارة الاسلامية.

ب- منهجية التفكير.

ج- القدرة على التعاون مع الآخرين.

إن بناء الحضارة ليس من مسؤولية فردٍ او فريقٍ من الناس، بل ولا جيل واحد. إنه عملية تبدأ ولا تنتهي، إلاّ بعد توفير الخير للانسانية جمعاء.

من هنا، كان على كل فرد أن يقوم بدور إيجابي لكي ندفع - جميعاً - عجلة الحضارة الاسلامية الى الامام والى الأبد.

والكتاب - الذي بين أيدينا - ضوء خاطف على طريق بناء الحضارة الاسلامية. انه مساعدة اولية لأولئك الذين يريدون ان يشتركوا في عملية البناء الحضاري. ذلك لأنه يساعد على التدبر في مصدر عظيم من مصادر الفكر الحضاري الا وهو القرآن الحكيم.

يبدأ الكتاب بالخطوط العريضة لفلسفة القرآن. ثم يبعض المبادئ العامة لأدب القرآن، وينتهي بالحديث عن كيفية التدبر في القرآن.

وسيجد الباحث بعض الصعوبة في هضم الكتاب ، ولابد انه ينتبه الى طبيعة هذه الصعوبة حينما يتذكر مسؤولية الكتاب؛ التي لا تعدو المساعدة على التفكير، ولكي يكون الكتاب ناجحاً لابد ان يكون باعثاً على التفكير، ولكي يكون باعثاً على التفكير لابد ان يكون مستصعباً. ولا ننسى ان طبيعة الموضوع تفرض الصعوبة ايضاً، أليس هو البحث عن القرآن؟ أوليس القرآن ذاته استشراف من علٍ فوق سهول الحياة وهضابها؟

وقد جاء الكتاب في الأصل على أسلوب محاضرات كان قد طلب إليّ إلقاؤها على فريق من الطلاب الجامعيين، ما لبثوا ان سجلوها، ثم عرضت عليّ، وبعد تصحيحها، اصبح الكتاب الذي بين ايدينا والذي يحتوي على فصلين: فصل في أدب القرآن وآخر في فلسفته.

ارجو ان اكون قد وفقت فيه لبيان بعض معالم القرآن الحكيم، وما توفيقي الاّ بالله.

محمد تقي المدرسي – كربلاء المقدسة

١ / ١١ / ١٣٩١ هـ

الفصل الأول

بحوث في أدب القرآن الحكيم

لماذا القرآن؟

أول سؤال يُطرح علينا هو السؤال عن السبب الذي ندعو من أجله الى القرآن الحكيم.

والواقع ان هنالك عدة أسباب تُفرض علينا العودة الى القرآن والتدبر فيه، ونحن إذ نذكر بعضها بصورة مقتضبة لا نملك سوى الاعتراف بعجزنا عن الاحاطة بها جميعاً.

١- لكل منا رغباته المشروعة التي يتمنى ان يجد سبيلاً مستقيماً إليها، والقرآن الحكيم ذلك السبيل المستقيم المؤدي الى تحقيق مصالح كل شخص ورغباته.

وليست اهمية القرآن وعظمته منحصرة في أنه يحقق للناس رغباتهم المشروعة، ويهديهم الى سُبل السلام المؤدية الى مصالحهم، بل الأهم من ذلك أنه يرسي قواعد للشخصية المتكاملة التي تستطيع بلوغ مآربها المشروعة بسهولة بالغة.

٢- ومصالح الانسان بدورها ليست سوى بعض تطلعاته الكبيرة، اما البعض الآخر فيكمن في بحث الانسان الدائب عن الحق والخير، وسعيه المستمر لتحقيقهما.

إن الانسان يبتغي إرساء دعائم الحق، كما يريد الوصول الى المصالح، واهم ما يصبو إليه هو التوفيق بين هدفيه هذين: تحقيق الحق، ووصول المصلحة!

والقرآن هو ذلك الحق الذي يبتغيه البشر ويسعى نحو معرفته واقراره.

وهو -اضافة الى ذلك- يهدي الانسان الى التوفيق بينه وبين المصالح الخاصة.

إذن؛ من منّا لا يريد ان يكون إنساناً طيباً يبتعد عن الجريمة والفحشاء، ويلتزم الطرق المستقيمة، ويتحلى بالسلوك الممتاز؟ ولكن كم واحد منا يستطيع ذلك؟ طبعاً قليلون.. لماذا؟ لأن ضرورات العيش لا تدع للفرد التفكير في الخير والحق!

ولكن القرآن الحكيم يوفر هذه الفرصة، إذ انه يهدي البشر الى السُبُل القويمة للمصالح والتي لا تتنافى مع الخير والحق، بل تتكامل معهما!

٣- نصطدم في هذه الحياة بعدة مشاكل، فمن صديق ينقلب علينا، ومن قريب يشاكسنا ومن خسارة تفاجئنا، وقد تصل بنا المشاكل الى حد الخروج عن محور الضبط ثم الانهيار في هاوية اليأس والضياع والانتحار.

ولكن القرآن الحكيم يضع الحلول الحاسمة للمشاكل جميعاً، بل واكثر من هذا، إنّه يصنع الانسان الذي يضع الحلول المناسبة لأية مشكلة طارئة.

ضرورة التدبر في القرآن

هذه هي فوائد القرآن. وهي بالذات الأسباب الـتي تدعـو إلى التدبـر فيه، لأن القرآن لا يفيد إلاّ من عمل به.. ولا يعمل به سوى الذي يتدبر فيه فيفهم.

بل ان التدبر في القرآن هو الوسـيلة الوحيـدة للعمـل بـه، إذ أن اللـه تعالى أودع كتابه الكريم نوراً يهدي الانسان إلى ربه العظيم، فيؤمن به، وبعد الإيمان يطبق شرائعه. من هنا ليس على الإنسان سوى أمـر واحـد هو الانفتاح على القرآن، واستعداد التفهم له، وهذا يكون بالتدبر فيه.

يقول اللـه سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة/١٥-١٦)

ان القرآن ذاته نور، وليس علينا امام النور إلا أن نفتـح أبصارنـا لـنراه، ونرى به الأشياء جميعاً.

ان الكفار والفاسقين اختاروا لأنفسهم العمى فلم يفتحوا أعينهم على النور المبين، وعملوا المستحيل في سبيل حجب النور الباهر عن التسرب إلى قلوبهم، خوفاً من امكانية تأثرهم به وتنورهم بشعاعه الكبير.

لقد كان الكفار يتواصون بهذه المقولة التي تقلها القرآن الحكيم عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت/٢٦) انهم كانوا يحذرون من النور ويتهربون منه.

لقد جاء أحدهم الى الرسول يسأله عن قرآنه فلما تلا النبي صلى الله عليه وآله بعض آيات الكتاب، صعق الرجل وشدّ على فم الرسول بيده، وقال: أناشدك الله والرحم إلاّ سكتَ (!) ثم تولى إلى قومه قائلاً: انه سحر يؤثر!!

انه لم يستطع الصبر على تيار النور الذي كاد يلف قلبه، لذلك اسكت النبي وتولى هارباً.

ان المطلوب من الإنسان الانفتاح على القرآن واستماع آياته بتدبر وتجرد. وعندئذ سوف يجد المرء كيف تحدث المعجزة؟

لقد حاول رجل مجرم أن يتسلق جداراً لينهب المال ويغتصب النساء، فسمع صوتاً ينبعث من داخل البيت، ويتلو هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ (الحديد/١٦)

فاستمع إلى الآية بضع ثوان، ثم انفجر باكياً وقال: بلى آن ذلك الوقت الذي يخشع قلبي القاسي لذكر الله وما نزل من الحق، بلى آن، فهبط من الجدار وتولى بوجهه شطر مسجد، واعتكف فيه إلى الأبد.

ان تدبر هذا الرجل في آية واحدة حوّله من مجرم متمرس بالجريمة الى معتكف في محراب العبادة.

فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن! أفلا يتحـول مـن رجـل الى مَلَك بل إلى من هو فوق درجات الملك؟

القرآن والتفسير بالرأي

يزعم فريق من المسلمين ان التدبر في القرآن غير مسموح به إلا للذي أوتي نصيباً كبيراً من العلم، ويستندون - في زعمهم هذا - الى بعض الروايات المأثورة التي نهت الناس عن تفسير القرآن بالرأي.

ولكن هذا الزعم غير منطقي أبداً. إذ ان الله كان أعلم بكتابه، وبخلقه، حيث أمرهم بالتدبر في آياته. بل حيث خاطب بالقرآن كل انسان، وفي كل أرض وفي كل عصر.

يقول الله سبحانه عن كتابه: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/١٣٨)

وهل يمكن أن يبعث الله بياناً للناس جميعاً، ثم ينهاهم عن التفهم له، او التدبر فيه، إذاً فما فائدة البيان؟

ان خطابات القرآن تهتف بالناس كافة وتقول: يا أيها الناس، أو بالمؤمنين جميعاً، وتقول: يا أيها الذين آمنوا. وهذا يعني أن الله

يريدهم ان يسمعوا كلامه، ويتفهموه. فهل نستطيع ان نزعم انه لا يجوز التدبر فيه؟

ولا يمكن ان نقول ان الروايات تنهى عن التدبر الذي أمر به اللـه، بل الأكثر منطقية القول أن الروايات نهت عن شيء، والآيـة أمرت بشيء آخر، أو ان الروايات بينت حدود التدبر التي لا يجوز التجاوز عنها.

فأي شيء نهت عنه الروايات؟

الواقع ان على الانسان ان يتبع الحق الذي يعرفه ويدع الذي لا يعرفـه، إن اللـه سبحانه يقول: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء/٣٦)

وكذلك لا يجوز للانسان - في شريعة الاسلام- أن يقول شيئاً لا يعلم به، قال اللـه سبحانه: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٦٩)

وقد اعتبر القرآن القول بغير علم كبيرة يعظمها اللـه ويستحقرها العباد، فقال تعالى: ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ (النور/١٥)

ومن هنا لا يجوز ان ننسب فكرة او عملاً لأحد ما لم نتأكد يقيناً انتسابهما إليه. كذلك لا يجوز تفسير كلام أي فرد إلا بعد التأكد من إرادته فعلاً لما نفسره، والا اعتبر ذلك نوعاً من التحريف في كلامه وضرباً من التهمة.

وتشتد خطورة الأمر بالنسبة الى اللـه العظيم، فأي قول ينسب إليه يجب ان نتأكد بالعلم اليقين أنه قالـه، وإلاّ كنا قد افترينا على اللـه

كذباً، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ (النحل/١١٦)

وكذلك أي تفسير لكلام الله المجيد لا نعلم يقيناً مطابقته للواقع يعد نوعاً من الافتراء على الله، لأنه يعتبر ضرباً من نسبة القول إليه دون التأكد من ذلك.

وكان في الأمة الاسلامية -ولم يزل- فريق يريدون استغلال الدين لمصالحهم الشخصية، او يستخدموه لإثبات اهوائهم المضلة، وهكذا يبدؤون بتفسير الآيات القرآنية حسب آرائهم الخاصة. إن هؤلاء يريدون ان يجعلوا كتاب الله تابعاً لأفكارهم فيحمّلونه مالا يحتمل.

وقد أراد الإسلام تطويق هذا الفريق، فجاء في الكتاب ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران/٧) (١)

هكذا وضح القرآن نوايا هذا الفريق الفاسدة ونهى -بشكل قاطع- عن تأويل القرآن للوصول الى الأغراض الفاسدة.

وجاءت الروايات تنهى عما نهت عنه الآية ايضاً، ولكن بتعبير آخر وهو "التفسير بالرأي" والذي يعني القول حسب الهوى الشخصي، وهو يقابل التفسير وفق الحق والواقع. وبالرغم من ان القول بالرأي

---

(١) سنتحدث -بإذن الله- عن المحكم والمتشابه في بعض الصفحات القادمة.

بصفة عامة، وأن تفسير أي كلام منسوب الى احد -تفسيره- حسب الرأي هو الآخر محرم، فإن كل ذلك بالنسبة الى كلام الله الحكيم يعتبر أشد حرمة، لذلك خصت الروايات هذا الأمر بالذكر وهو غير خارج عن القواعد العامة.

وإليك بعض تلك الروايات:

عن الامام الصادق عليه السلام: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وان اخطأ فهوى أبعد من السماء. (١).

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد اخطأ. (٢)

وروي عنه ايضاً أنه قال: من فسّر القرآن برأيه بُوِّئ مقعده من النار.

اذن؛ فهنالك حقيقة لا ريب فيها، هي أن القول بالرأي - خصوصاً في تفسير القرآن الحكيم- حرام أشد ما تكون الحرمة.

ولكن لا يرتبط ذلك بالتدبر في القرآن، إذ التدبر هو: التفكير المركز في الآية لمعرفة الحقيقة التي ذكر بها معرفة تعيينية.

فالتدبر إنما هو لتحصيل العلم بالقرآن، حتى لا يقول الانسان برأيه في تفسير القرآن وإنما بالعلم.

---

(١) تفسير الصافي، الجزء الاول ، ص٢١.

(٢) المصدر.

القرآن بين التزكية والتعليم

للقرآن الحكيم هدفان أساسيان إذا عرفناهما عرفنا بعض الجوانب الغامضة منه، وهما تزكية الناس وتعليمهم، ولقد أشار الكتاب الى هدفيه هذين في قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة/٢)

فالآيات القرآنية التي تُتلى على الاميين تهدف تزكيتهم ثم تعليمهم الكتاب والحكمة.

فما هو الفرق بين "التزكية" و "التعليم"، وكيف ان القرآن يجمع بينهما مرة واحدة؟

١- التزكية هي تنظيف النفس البشرية من رواسبها الجاهلية، سواء كانت من نوع الأفكار الباطلة، او المعتقدات الفاسدة، او الاخلاق السيئة. التزكية هي تربية الانسان المتكامل الذي يفجّر طاقاته العقلية والجسدية

جميعاً باتجاه الخير والحق.

وكلمة التزكية مشتقة من الزكاة؛ وهي الطهارة. وأساس التزكية تقوية الارادة البشرية، وتحكيم حس التحرر من الاهواء والشهوات، وتحكيمه في سلوكه.

ولا تهدف التزكية اكثر من تطهير البشر وتنظيفهم.

بينما التعليم يهدف إضافة "المعارف" الجديدة للإنسان، لدفع عجلة البشر الى الامام. وهو يعتمد على طاقة العقل الكامنة فيه.

فالعلاقة بين التزكية والتعليم تشبه الى حد بعيد العلاقة بين تنظيف ماكنة السيارة وبين وضع الوقود فيها. إذ التنظيف يغسل المواد الضارة، والوقود يضيف مواد جديدة.

فوقود الإنسانية في مسيرتها الحضارية هو العلم، ولكن هذا الوقود لا ينفع من دون تنظيف ماكنة الإنسان من الاخلاق الفاسدة والأفكار الباطلة.

من هنا؛ تكمّل عملية التزكية عملية التعليم وتأتي الواحدة تتمة للأخرى.

٢- اما كيف يجمع القرآن بين التزكية والتعليم؟ فهذا يجب ان نبحث فيه عبر عدة نقاط:

أ- ان القرآن الحكيم يوجه الناس الى الحق، بالحق ذاته، فلا يجعل الباطل وسيلة لدعوة الناس الى الحق شأن سائر الكتب التربوية التي قليلاً ما تنظر الى وسيلة تحقيق الهدف التربوي. من هنا يبين القرآن الحكيم السنن الكونية والقوانين الفطرية التي تحكم الحياة وتوجه الناس الى معرفتها لكي يزكوا انفسهم بمعرفتها.

وتوجيه القرآن نحو هذه السنن والقوانين يهدف امرين:

الاول: هداية الناس الى طريق صلاحهم والذي لا يعدو ان يكون التوفيق بين حياتهم وبين متطلبات السنن العامة.

الثاني: تعليم الناس لتلك السنن. ومن الطبيعي ان يختفي الهدف الثاني من ظاهر القرآن، إذ ان سياق الكتاب يسير باتجاه التزكية، مما ينبئ عن انها الهدف الوحيد الذي ينشده القرآن، ولكن بالرغم من ذلك فان نظرة فاحصة تهدينا الى البيانات العلمية التي تنطوي عليها الآيات. فمثلاً في سورة الرعد نجد الآية الكريمة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (الرعد/١١)

انها حقيقة تربوية يتعرض اليها الكتاب لتثبيت المسؤولية الشخصية في نفوس الامة. وقبل هذه الآية وبعدها تذكيرات بهذه الحقيقة.

ولكن النظرة الفاحصة تهدينا الى وجود ما هو اشمل واوسع دلالة في هذه الآية، انه القانون الاجتماعي الذي يربط بين الحضارة وبين تطوير الصفات النفسية. ويقول كلما كان بناء قومٍ أكثر من هدمهم، كلما تقدمت بهم الحضارة، ولا يكثر البناء على الهدم على صعيد الواقع الا بعد وجود نفسية مناسبة على صعيد الذات.

لقد جُعل هذا القانون العلمي في هذه الآية وسيلة لتزكية الانسان وتحميله مسؤوليته تجاه التطورات الخارجية.

ونلاحظ وجود منعطف صارخ في سياق بعض الآيات الهدف منه بيان حقيقة علمية ترتبط بواقع التزكية التي يهدفها ظاهر السياق.

فمثلاً يقول الله سبحانه: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الشورى/٢٦-٢٨)

نرى في السياق منعطفاً صارخاً عند قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

حيث لا يرتبط ظاهراً بما قبله من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وبما بعده من قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾

ووضع هذا المنعطف إنما هو لبيان سُنة فطرية تجري في العباد، وهي فقدهم للتوازن إذا ثقلت عليهم النعم، باعتبار ان النعمة بحاجة الى قدر من التحمل والضبط، وربما بقدر او اكثر مما تحتاج النقمة إليها.

ان ابداع هذا المنعطف في سياق الآية الذي يبدو مستقيماً بدونه، إنما هو لهدف بيان الحقيقة العلمية في ثنايا التوجيه النفسي، ليس فقط من اجل توظيفها في خدمة التزكية، بل وأيضاً من اجل بيانها للناس.

باء: والاسلوب التربوي الذي يتبعه القرآن الحكيم في تزكية النفس أسلوب علمي بذاته، إنه اسلوب مرحلي يتابع مراحل التزكية، بما يتناسب معها من الإثارة العاطفية والتوجيه الفكري والزخم الايماني، إنه اسلوب يربط - بحكمة بالغة- بين الفكرة الموظفة والهدف المنشود.

وبكلمة؛ ان البشرية تسعى منذ قرون في سـبيل وضـع مناهج علميـة للتربية، والقرآن سبق البشرية جميعاً في اسـتخدام كـل هـذه المنـاهج وغيرها مما يطول بيانها تفصيلاً.

وهذا يهدينا الى حقيقتين:

١- ان بوسعنا معرفة المناهج العلمية الأصوب عن طريق تتبع المناهج القرآنية آية بآية، وموضوعاً بموضوع.

٢- ان بوسعنا الانطلاق من نقطة واحدة في دراسـة هـذه المنـاهج الى قاعدة شاملة عند ملاحظتنا للقرآن الحكيم تماماً ، مثل انطلاق المهندس القدير من النظر الى عمارة واحـدة الى معرفـة القـاعدة الهندسـية الـتي قامت وفقها هذه العمارة، ومثل تفهم الطبيب الحاذق مـن وصفـة طبيـة للقاعدة العلمية التي استند إليها ذلـك الذي كتبها، وهكذا..

فمعرفة المناهج قد تهدينا الى السنن الفطرية التي روعيت عند وضـع هذه المناهج وبالتالي نستطيع فهم السنن هذه.

القرآن الحكيم بين الظاهر والباطن

بعد ان تعرفنا على خطي القرآن المتشابكين؛ خط التزكية وخط التعليم، وعرفنا ان الهدف الأهم الذي يبدو من سياق آيات القرآن هو التزكية، بعد ذلك نستطيع ان نهتدي الى الظاهر والباطن.

فالظاهر هو التزكية، بينما الباطن هو التعليم.

وقد جاء في حديث مأثور: "ان ظاهر القرآن حكم وباطنه علم" والحكم هي الشريعة مع موجبات تنفيذها من ترغيب وترهيب وقصص وأمثال. بينما العلم هو السنن الفطرية التي بيّنها القرآن المجيد، والقوانين العلمية التي اشار اليها.

وجاء في حديث آخر: "ظهر القرآن الذي نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل اعمالهم". (١)

ومن المعروف ان قصص الذين نزل فيهم القرآن تعتبر الجانب التربوي

---

(١) تفسير الصافي، ج١، ص١٧.

منه، بيد أنّ القرآن حينما ينتزع من القصص سُنناً عامة تشمل الذين نزل فيهم وتسع الذين عملوا بمثل اعمالهم، تعتبر -آنئذٍ- تلك السنن علماً بالتاريخ او الاجتماع او ما اشبه.

وجاء في حديث آخر: ان رجلاً قال: سألت الامام عما يعني بقوله: للقرآن ظهر وبطن؟ قال: "ظهره تنزيله وبطنه تأويله منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد يجري كما يجري الشمس والقمر كلما جاء منه شيء وقع".

وهذا الحديث يؤكد معنى الحديث الاول ويتظافران على ان تنزيل القرآن هو الظاهر الذي يدل عليه اللفظ، بينما التأويل- وهو أيضاً بطن القرآن- إنما هو الواقع العلمي الذي يهدي اليه الظاهر وينطبق على كل من يشارك مع أولئك في اعمالهم.

وقد عبرت بعض الاحاديث عن علوم القرآن بـ(البطن) لانها تخفى على الناس، ثم تظهر بالتدبر، وحسب اختلاف الناس من النواحي العقلية والعلمية تختلف درجات الخفاء، حتى يُعتبر الواقع الواحد، ظهراً بالنسبة الى فريق، وبطناً بالنسبة الى فريق آخر. لذلك تعددت البطون والاظهر بقدر تعدد درجات الناس في العقل والعلم. وجاء في حديث: ان رجلاً قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن، فأجابني ، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت اجبت في هذه المسألة بجواب آخر غير هذا قبل اليوم، فقال لي: ياجابر، ان للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً.

وهكذا فسّر الإمام (عليه السلام) آية واحدة عدة تفاسير حسب مستوى وعي السائل، إذ انه حينما عرف تفسيراً يشرح ظاهر القرآن استعد علمياً لمعرفة تفسير يشرح بطنه.

بهذا نعرف معنى عدة احاديث مأثورة تقول ان للقرآن سبعة ابطن او سبعون بطناً. وبهذا ايضاً نعرف قيمة التدبر باعتباره الكاشف الوحيد لبطون القرآن، فكلما تدبرنا كلما ازددنا علماً.

القرآن الحكيم بين المحكم والمتشابه

ولأن القرآن المجيد خطاب مباشر من الله خالق كل إنسان، وإلى كل إنسان، فلابد ان يكون مفهوماً لهم جميعاً، بقدر ما يكون عالياً عليهم، يكون مفهوماً لانه خطاب، وعالياً لانه من الله.

ولأن الناس درجات في العلم والإيمان؛ فلابد ان تكون آيات القرآن درجات، فتنشأ المشكلة ، حيث تكون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة، بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدّهم ويأمرهم بترك الآية غير المفهومة لهم، تركها لمن يفهمونها، ممن تتناسب درجاتهم معها، بينما هم يستوحون من تلك الآيات التي تنالها أفكارهم ويتفق معها مستوى نضجهم. والقرآن الحكيم يُسمي الآية المفهومة بـ(المحكم) بينما يدعو الآية التي هي أعلى من مستوى فهم القارئ بـ(المتشابه)، ويأمر الناس باتباع

المحكم وترك المتشابه.

من هنا نعرف ان الناس ليسوا سواءً في المحكم والمتشابه، إذ ان المحكم الذي يبدو واضحاً عند فردٍ -لانه في مستوى فهمه- يكون متشابهاً عند فردٍ آخر، لأنه اعلى من مستواه.

وقد جاء في الحديث في تفسير المتشابه بأنه: "ما اشبه على جاهله" وعليه فانّه يجب على من لم يؤت فهم آية أمران:

١- ان يقف عند الآية ولا يصيبه الغرور فيزعم انه قادر على فهم الآية، فيفسرها برأيه فيضل ويضل الآخرين.

٢- ان يلتمس من هو أعلى درجة منه لعله يتعلم منه معنى الآية. ولو لم يفهم- حتى مع التعليم- فعليه ان يدع علمه الى اهله.

هذه الحقائق هي التي تذكر بها الآية الكريمة التي تقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران/٧)

وجاء في الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام): "ان القرآن فيه محكم ومتشابه، فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين به، وأما المتشابه فتؤمن به ولا نعمل به." (١)

---

(١) تفسير الصافي، ج٢، ص١٨.

القرآن الحكيم والأحرف السبعة

جاء في حديث شريف: "نزل القرآن على سبعة احرف: امر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل." (١)

وجاء في حديث آخر: "ان الله تبارك وتعالى انزل القرآن على سبعة اقسام؛ كل قسم منها كاف شاف وهي: امر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل ، ومثل، وقصص." (٢)

وقد تظافرت الاحاديث التي تقول: ان القرآن نزل على سبعة احرف.

وذهب فريق من المسلمين الى تفاسير بعيدة لهذه الكلمة، فقد قال بعضهم: ان الله اوحى سبع مرات، سبع كتب كلها قرآن.

بيد ان الجانب التربوي الذي يهدفه سياق ظاهر القرآن بحاجة الى هذه الاحرف السبعة، فقسم منه امر بخير، وقسم نهي عن شر، وقسمان

---

(١) تفسير الصافي، ج١، ص٣٩.

(٢) نفس المصدر.

منه ترغيب لمن عمل بالخير ووعد له بالجنة والفلاح، وترهيب لمن اقترف الشر ووعيد له بالنار والشقاء، كل ذلك ليكون قوة تنفيذية نابعة من ذات الآية.

يبقى الجدل، وهو ضروري في كتاب يحمل سمة العقيدة، لأن هنالك شبهات راسخة في قلوب البسطاء يجب تصفيتها قبل البدء بتزكية النفس، وطريق التصفية هو الجدل والمناقشة الهادفة.

وللقرآن سمة هامة تطبع جميع مناحيها، وهي سمة الحيوية التي تجعل من الفكرة واقعاً يتحرك امام اعين الناس، وتتحقق هذه السمة بواحدة من اثنتين: اما القصص التاريخية التي لها حقيقة خارجية، واما الامثال التي لا حقيقة خارجية لها.

وهذا التقسيم في القرآن الحكيم سيعطينا فرصة لفهم كتاب الله، إذ ان مجرد تقسيم النص - أي نص كان - يعطي الفرد قدرة هائلة على اكتشاف خفاياه!.

القرآن الحكيم واثباتات معانيه

ما هي الاثباتات اللغوية التي يمكننا الاعتماد عليهـا في فهـم القـرآن الحكيم؟

نرى ثلاثة إثباتات رئيسية لمعنى القرآن: اللغة، والسياق، والتفسير المصون.

أ- اللغة.

بالرغم من ان اللغة العربية أشمل وأدق واجمل اللغات في انها تعطـي لكل حقيقة لفظاً قريباً يتناسـب معهـا تمامـاً، وبـالرغم مـن ان العـرب اختاروا لكل تطور ينشـأ في شـيء، لفظـاً يخصـه، ويوحـي الى تلـك الحقيقة متلبسة بذلك التطور.

بالرغم من هذا وذاك فإن الكلمات العربية اكتنفها الغموض مما افقد إيحاء اللفظ وظلاله، فلم نعد - نحن العرب- نملك رهافة الحس الـتي كانت بين لفظتي " قرب - اقـترب" أو "فكـر - افتكـر" حتـى لم نعـد نعرف الفرق بين كلمتي "سار وسارب" و" دلك واولج" وما اشبه.

ويعود ذلك الى :

اولاً: كثرة استعمال الألفاظ في غير معانيها الأدبيــة، فحينمـا يستعمل العربي كلمة "قرب" في المجال المحـدد لـ "اقتـرب" او حتى كلمـة "سار" في موضع كلمة "سارب"، تختلط ظلال الكلمتـين مع بعضهمـا، وتضيع الايحاءات الخاصة.

ثانياً: تعلقت اذهاننا بمعاني جامدة ومحددة لألفاظ عربية، وفقدنا الشعور بمحور شعاع الكلمة، نحن حينما نستعمل كلمة "جن" يتبـادر الى اذهاننا المخلوق الغريب ، دون ان نفكر ولا لحظة حول ارتباط كلمــة "ج ن ن" مع هذا المخلــوق، ونستعمل كلمـة "جنين" دون ان نعـرف ان هنـاك علاقة تناسب مع معنـى الولـد في بطـن امه (جنين) ومعنـى المخلوق الغريب (جن)، وهي ان كليهما مستور عن اعين الناس.

وكذلك نطلق لفظة الخمر للدلالة على السائل المسكر ، ونطلـق لفظـة الخمار للدلالة على الساتر لوجه المـرأة ، ولا نلاحـظ ان علاقـة اللفظين ببعضهما إنما هي من ناحية الستر، فهذا يستر الوجه، وتلك تستر العقل.

وهكذا تتداخل إيحاءات اللفظ العربي ببعضه، فنفقد بذلك فهم اهم سمـة من سمات اللغة العربية التي لو فهمناها لَسَهل علينا فهم القرآن كثيراً.

من هنا يتوجب علينا الخروج من الفهم التقليدي للألفاظ العربية نحـو افق اسمى، يستشم المعنى الايحائي العام منها.

وهنا الخروج ضروري لفهم القرآن الحكيم، إذ انـه في قمـة البلاغـة الـتي تتلخص في رعاية التناســب الشـامل بين الموضـوع واللفـظ، وبين الواقع

والتعبير، فيكون كشف المنحنيات التعبيرية والايحاءات اللفظية ذات اهمية خاصة في القرآن اكثر من أي كتاب آخر، لأنها معنية فيه بشكل لا يوصف.

يبقى السؤال عن كيفية الخروج؟

والجواب: على الفرد:

١- ان يتجرد اولاً عن موجبات المناخ الفكري الذي يُصور له معنى جامداً للفظ.

٢- ثم الرجوع الى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة، والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعة باللفظ، فمثلاً نجمع معاني يعرشون؛ عرشاً معروشات، ونعود الى تصريفات اللفظ الاخرى؛ عريش، وعرش وما اشبه. لنستنبط منها جميعاً معنى البناء الفوقي، لأنه يجمع معاني سرير الملك والبناء المرفوع وسيباط الكرم والخيمة من الخشب، هذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الالفاظ.

٣- قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها، ليعرف المعنى المشترك الذي يمكن ان يتصور جامعاً بين هذه الموارد. ومن الطبيعي ان يعتبر في الاستعمال ان يكون على لسان اهل اللغة المعتنين بالبلاغة.

والأدباء اليوم يكتشفون ظلال الكلمات وإيحاءاتها من موارد الاستعمال في منطق البلغاء اكثر مما يكتشفونها في بطون الكتب اللغوية، وذلك لأن ما في كتب اللغة لا يعدو ان يكون تسجيلاً ميتاً لموارد الاستعمال، او استنباطاً لمعنى مشترك منها قد قام به مؤلفو الكتب، ومن هنا يكون تعرف الشخص ذاتياً بهذه الموارد واستنباطه بنفسه المعنى الجامع بينها،

افضل من تقليد كتب اللغة.

وبكثرة النظر في موارد الاستعمال يؤتي الفرد حساً أدبياً مرهفاً يجعله يميز بين كلمتين مترادفتين بشكل دقيق، بالرغم من انه قد لا يستطيع الافصاح عما يعرفه بدقة وتحديد. وإذا كان قياس موارد الاستعمال ببعضها افضل السبل لمعرفة المعنى الحقيقي للفظ ما، فإن افضل قياس من هذا النوع هو قياس موارد استعمال الكلمة في القرآن ذاته، إذ انه -ولا ريب- ذروة البلاغة العربية، التي عجز عن تحدّيه ابلغ فصحاء العرب.

وهكذا يجدر بالذي يريد التدبر في القرآن ذاته، ان يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيات القرآن ذاته، ليجد -بقياس بعض المواقع المستعملة فيها الكلمة ببعضها- ذلك المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن.

ب - السياق.

لو بحثنا عن أول يوم تعلمنا فيه اللغة، لعرفنا ان السياق كان أول سبيل لهذا التعلم، فالوالد استعمل لفظ العصى عندما كان يتكلم عن الضرب، فعرفنا أنه وسيلة الضرب. والوالدة أطلقت لفظة الولاعة حينما تكلمت عن الطبخ، فعرفنا أنها وسيلة إشعال النار.و..و..

ولا ريب ان وجود اللفظ في اطاره المتناسب يوحي بمعناه ربما اكثر من تفسير اللفظ بدون سياق يحده.

والقرآن الحكيم ذلك الكتاب البليغ الذي يناسب بين المفردات في اطار السياق بحيث يصعب عليك تبديل لفظة باخرى دون ان تضر بتناسب الكلمات.

لذلك يهدينا السياق ذاته الى المعاني الدقيقة للكلمات لأنها وضعت في موقع متناسب جداً مع تلك المعاني، فإذا أردنا ان نعرف بالدقة معنى اللفظ كان علينا مراجعة ما قبلها وما بعدها، لمعرفة ما يتناسب معهما من معنى لهذه الكلمة، فمثلاً لو اردنا ان نكتشف معنى "قصد" في هذه الآية ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل/٩) لو اردنا ذلك قارنا بين القصد، والجائر، والهداية، فنعرف معنى القصد، لأنه جاء في مقابل الجائر الذي يعني المائل، فالقصد هو المستقيم، والجائر هو الظالم فالقصد هو العادل.

أو إذا أردنا التعرف على معنى "نفش" في هذه الآية ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الانبياء/٧٨) لو اردنا ذلك لم يكن علينا الا قياس كلمة نفشت بالحرث والغنم والحكم، مما نعرف انه اتلاف الحرث، وهكذا.

وقد جاء رجل الى صحابي فسأله عن معنى "الأب" الذي جاء في الآية الكريمة ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فلم يعرفه. وجاء علي عليه السلام وقال: إن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها، لأن الله سبحانه يقول: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس/٣١-٣٢)

ج - التفسير.

إن معرفة الاطار التاريخي الذي شاهد نزول الوحي، ومعرفة المورد الخاص الذي نزلت فيه الآية، والموقف الاجتماعي الذي وجهته الآية، ذات أثر كبير في تفهم المعنى الدقيق للآية.

ومعرفة تفاسير ائمة الوحي (عليهم السلام) للآية قاطعة في معانيها، بيد ان تفاسير الأئمة عليهم السلام قد تختلف فيما بينها، او تبين تطبيقاً واحداً للآية، وهنا لابد ان تتخذ منها سبيلاً لفهم المعنى العام الذي يحل مشكلة الاختلاف – من جهة– ويعطي الآية تطبيقات اشمل من جهة ثانية، ولذلك يجب ان لا نجمد في النصوص الواردة في تفسير الآيات على انها المعاني الوحيدة التي تحملها، بل نتخذ منها وسيلة لفهم المعنى الأشمل للآية، وندرس كيف ولماذا انطبقت الآية على المورد الذي يعينه التفسير، لنعرف انه هل يمكن تطبيق الآية ايضاً على مورد متشابه ام لا؟

فمثلاً جاء في بعض النصوص التفسيرية أن الآية الكريمة ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل/١٠٦) نزلت في حق عمار بن ياسر، حسناً فهل من الممكن تجميد الآية في عمار؟ كلا. بل يجب ان نفكر كيف جاءت الآية تطبيقاً على حالة عمار... أليس لأنه كان قد اكره على الشرك فأعطاهم بلسانه ما احبوه؟ اوليس ذات الموقف لو تكرر لرجل اليوم وصنع مثل ما صنعه عمار تنطبق عليه.

إن هذا الأسلوب من التفكير يجعل القرآن حياً ابداً، وقد امر به الدين، فجاء في الحديث: "لو ان القرآن كان يذهب بموت من نزل فيهم لذهب القرآن كله، وإنما مثله كمثل الشمس، كل يوم جديد".

بهذا نعرف ضرورة الاستفادة من التفسير الصحيح بالفهم الواعي لحدود تطبيق التفسير لعموم الآية.

التدبر والصفات النفسية

عدة صفات ينبغي ان يتحلى بها المتدبر في القرآن ليستطيع فهم آياته المجيدة؛ صفات نفسية وعقلية، حتى يتسنى له بعد تطبيق طرق التدبر على نفسه معرفة الحقائق الكبرى التي تنطوي عليها الآيات. وإليك بعض هذه الصفات:

١- الإيمان بالقرآن على انه كتاب أوحى به الله رب السموات ليكون لعباده مبشراً ونذيراً. وهادياً الى الحق باذنه وسراجاً منيراً.

لابد ان نقرأ القرآن بوصفه خطاباً موجهاً إلينا من الله العظيم، فقد جاء في الحديث: "ان في القرآن المناجاة مع الرب بلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك، ومنشور ولايتك، وكيف تجيب اوامره ونواهيه وكيف تمثل حدوده" (١) إنه وثيقة ارتباطنا بالمبدئ المعيد، بالله.

إنه المنقذ من كل ضلالة وشقاء. جاء في الحديث: "القرآن عهد الله

---

(١) تفسير الصافي، ج١،ص٤٧.

إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم ان ينظر الى عهده".

إن القرآن قد يخاطب رسوله في نصوصه ولكنه لا يعنيه فقط، بل ويعني معه كل شخص تال له، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام إن القرآن نزل على لغة "إياك أعني واسمعي يا جارة". أي أنه خطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه شامل ايضاً لك ولي ولكل التابعين له.

حينما يقول القرآن: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ (محمد/١٩)

يجب ان أبادر بالاستغفار لانه خاطبني شخصياً بذلك.

وحينما يقول الله: ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ..﴾ يجب ان استعد لتلبية امره، واقول: لبيك اللهم لبيك ماذا تأمرني؟ .

وحينما يقول: ﴿ يَآ أَيُّهَا النَّاس﴾ اقول: نعم. ماذا نعمل؟ وهكذا.

لقد كان اولياء الله العارفون يتلون القرآن بهذه الصفة، فكانت جلودهم تقشعر وقلوبهم ترتجف حين يقرؤون آية، بل كانوا يصعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم.

لقد تلا الإمام الصادق عليه السلام آية في صلاته وردّدها مرات، فصعق صعقة ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق سئل عن ذلك منه، قال: " لقد رددتها حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته". (١)

٢- وتنشأ من صفة الإيمان بالقرآن صفة كريمة اخرى؛ هي الاستعداد

---

(١) الصافي، ج١، ص٤٧.

لتطبيق آياته. إن هذه الصفة شرط هام في فهم آيات الله، إذ ان التسليم المسبق لنتائج البحث عن الحق يساعد النفس على البحث المجرد، بعكس الاستكبار والتردد في قبول نتائج البحث العلمي، إذ أنه يقلل من قيمة هذا البحث عند الانسان وبالتالي يصرفه عنه.

من هنا كان على الإنسان ان يجعل القرآن امامه ويسلم إليه زمام امره قبل ان يبدأ بتلاوة آياته حسبما يصف الإمام علي عليه السلام المؤمن الصادق فيقول: "قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وامامه يحل حيث حل ثقله وينزل حيث كان منزله".

وان فريقاً من الناس يتلون القرآن فيؤولون آياته حسب اهوائهم ابتعاداً عن العمل بها، إن هؤلاء لا يؤتون فهم القرآن ابداً، بل ان تلاوة القرآن ستزيدهم وزراً ووبالاً.

إنما يؤتى علم القرآن من تواضع للحق، وسلم لله وفتش عن الواقع، واستعد سلفاً لاتباع الحقيقة لو انكشفت له.

التدبر والصفات العقلية

وان أهم الصفات العقلية الضرورية للتدبر هي التركيز والشجاعة:

١- فتركيز شعاع الشمس عبر زجاجة مقعرة، هو الذي يسبب في تحويل هذا الشعاع الى طاقة جبارة. كذلك تركيز شعاع الفكر عبر نقطة واحدة سوف يضاعف من فاعلية الفكر ويكشف الحقائق بوضوح.

وبمدى اهمية التركيز تكون مدى صعوبته، إذ ان النفس تقاوم التفكر في امر واحد عدة ثوان، ولكن على الذي يريد الفهم ان يروّض نفسه على صفة التركيز، فيظل يوجه اهتمامه الى شيء واحد عدة لحظات، حتى يعرفه.

ولهذا جاء في الاحاديث الأمر بترتيل القرآن لانه اقرب الى التركيز من التهامه. فجاء في حديث عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل/٤)، قال: "بيّنه

تبييناً، ولا تهذّه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرمل، ولكن فزّعوا قلوبكم القاسية ولا يكن همّ احدكم آخر السورة". (١)

وعن الامام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ قال: "قف عند وعده ووعيده وتفكر في أمثاله ومواعظه". (٢)

٢- والشجاعة هي الصفة العقلية التي لابد ان يتحلى بها من شاء العلم، ذلك ان عدم الثقة بالنفس يتسبب في تردد الشخص في نتائج بحوثه، وهنا تبرز أهمية الشجاعة النفسية في قبول النتائج.

إن الحق يظهر لكثير من الناس، إلا ان قليلاً منهم يراه، لماذا؟ لان اكثرهم يهاب رؤيته، ويخاف ان يتعارض مع مسبقاته الفكرية ورواسبه التقليدية، يخاف ان يتناقض مع افكار مجتمعه وبيئته، لذلك لا يقترب منه، بل يغمض جفنه إذا اقترب الحق منه. هكذا يجب ان نتحلى بشجاعة الفهم إذا اردنا ان نخوض حقل التدبر، فيجب ان نجعل الحق فوق كل شيء. فليكن معارضاً لأفكارنا السابقة، او ليكن متناقضاً مع افكار الناس. لابد ان نقول اننا سوف نتبعه، فانما بهذه الروح الشجاعة فقط نستطيع كشف الحقائق.

إن آراء المفسرين حول الآية يجب ان لا تعيقنا عن التدبر من جديد في معناها، إذ ربما كانوا جاهلين بمعناها، او ببعض معانيها وآفاقها.

---

(١) الهذّ: سرعة القراءة، والنثر: التباطؤ فيها بحيث لا ترتبط كلماتها. الصافي، ج١، ص٤٥.

(٢) المصدر، ج١، ص٤٧.

التدبر والسياق القرآني

وللسياق دور كبير في بيان الواقع العلمي للقرآن، والسبب؛ ان القـرآن يلاحظ ارتباط آيـة بأخرى ملاحظـة دقيقـة، ولا تتلاحـق الآيـات ولا الكلمات داخل آية واحدة إلاّ بإحدى علاقتين: علاقة علمية او تربوية.

١ – العلاقة العلمية:

القرآن يعكس واقع ارتباط حقيقة بأخرى فيذكرهما مـع بعـض، فمثـلاً يقول اللـه سبحانه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ اللـه وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِـكَ ﴾ (محمد/١٩) ان علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد اللـه علاقة واقعيـة تفرضهـا حقيقـة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانية، فـالعقيدة بأحديـة اللــه توجـب العقيدة بعبودية الفرد، وواضح ان العبد يجب ان يخضع للـه.

وتماماً مثل هذه العلاقة موجـودة في قولـه تعـالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلآَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء/٢٥)

فعلاقة عبادة اللـه بتوحيده، امر واقعي، من جهة ان على العبد مسؤولية العبادة للـه الواحد.

وكذلك علاقة آيتين ببعضهما في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللـه عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللـه لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة/٢٠٤-٢٠٥)

فعلاقة الآية الاولى بالثانية ناشئة من وجود ارتباط بين صفات المنافقين، فهم من جهة ينمقون كلامهم، وهم من جهة ثانية يفسدون في الأرض.

ان القرآن يتحدث إلينا عن نموذج من الناس، لذلك يذكر كل صفاتهم ولا تكون صفة فيهم دون وجود اخرى.

ان هذه العلاقة نجدها في اواخر الآيات التي تنتهي في كثير من الاحيان بذكر صفة او صفتين للـه سبحانه ترتبط بنوع المضمون المذكور في الآية، فمثلاً نجد في هذه الآيات الكريمة مدى ارتباط آخر الآية بمضمونها (ارتباطاً واقعياً) يقول اللـه سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى/٢٨)

فالولي الذي يحب عباده ينزل عليهم الغيث، والحميد ينشر عليهم رحمته، فهنالك علاقة وثيقة بين الولاية ونزول الغيث، والحمد ونشر الرحمة.

وكانت العرب ترى وجود هذه العلاقة وتستنبط منها اشياء واشياء.

فمرة سمع اعرابي رجلاً يتلو آية هكذا: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من اللـه واللـه غفور رحيم ﴾

فقال له : اخطأت! قال: وكيف؟ قال: إن المغفرة والرحمة لا تناسبان قطع يد السارق، فتذكر الرجل الآية وقال: ﴿.. وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال الاعرابي: نعم، بعزته اخذها وبحكمته قطعها.

انه عرف كيف يجب ان تكون نهاية الاية متناسبة مع بدايتها، من ناحية العلاقة الواقعية.

٢- العلاقة التربوية.

بما ان القرآن كتاب تربية، وبما ان صفات النفس ترتبط ببعضها، فان القرآن المجيد يلاحق النفس البشرية بما يُصلحها من التوجيهات فإن طغت - افراطاً- صفة عليها عالجها بحكمة. وإن طغت - تفريطاً- عالجها بحكمة اخرى ولا يزال يُعد لها حتى تتحول الى نفس سوية.

ونستفيد من دراسة علاقة الآيات التربوية ببعضها علماً بخبيئة النفوس، وبمعرفة القوانين التربوية التي تتحكم فيها.

وكمثل لهذه العلاقة نذكر قوله سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة/١٩٥)

ان جمل هذه الآية ثلاثة: الأولى في الانفاق. والثانية في النهي عن إلقاء النفس في التهلكة. والثالثة في الاحسان. فما هي علاقتها ببعضها؟

اول ما أمر الله بالانفاق توجهت النفوس إليه وكانت مخافة الافراط في الانفاق، فجاءت الجملة الثانية تنهى عن التهلكة وتأمر بالاقتصاد في العطاء، فاعتدلت صفتا الانفاق والاقتصاد في النفس، وبما ان

النفوس مفطورة على البخل كان من الضروري ترجيح كفة الانفاق، في مقابلة الشح الطبيعي، فجاءت الجملة الثالثة، واحسنوا ان الله يحب المحسنين.

التدبر والواقع الخارجي

الذي يهدف تفهم القرآن يجب ان يجعله حياً نابضاً بالحركة، وذلك عن طريق تطبيق آياته الكريمة على الواقع الخارجي.

إن لآيات القرآن أهلاً تطبق عليهم في كل عصر، فآية المتقين لها تطبيق حي، كما لآية الفاسقين. فلابد ان يبحث الفرد عن هؤلاء كلما تدبر في القرآن، وهنالك يتحول الكتاب المبين الى منهاج عمل. ليس هذا فحسب، بل ويهدي الإنسان الى حقائق كثيرة ، لانه يساعد الفرد على فهم الاحداث المعروفة، ويكون مثله آنئذ مثل المرشد في متحف للآثار، حيث لا تفيد رؤية المتحف بدونه كما لا يغني ارشاده دون رؤية الاثار.

وهذا هو السبب في ان المعاصرين لنزول الوحي كانوا يفقهونه، حتى كادوا ان يكونوا انبياء، من سعة العلم ونضوج الفقه، ذلك لانهم كانوا يتلقون الوحي في حمّى الاحداث اليومية، لان القرآن نزل مع الأحداث الرسالية، يوماً بيوم، وقد علّل القرآن ذاته هذا التقسيط بتثبيت آياته فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان/٣٢)

فإذا شئنا أن نفهم الكتاب فلابد ان نعرض عليه الاحداث اليومية، ليكشف عن حقائقها الكامنة. جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أتاني جبرئيل فقال: يا محمد ستكون في امتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خبر وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل وليس بالهزل". (١)

في هذا الحديث: امر الله بعرض الفتنة على القرآن لمعرفة حكم الله فيها، وهو نوع من تطبيق القرآن على الحياة الواقعية.

وفي حديث آخر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق. (٢)

---

(١) المصدر، ٩.

(٢) ماحل: أي مهلك لمن تولى عنه. [وسائل الشيعة، ج٤، كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن، ص ٨٢٨، الباب٣، الحديث٣.]

التدبر والتطبيق القرآني

أكبر فائدة يغتنمها المتدبــر في كتـاب اللــه هـي تزكيـة نفسـه وبنـاء شخصيته. حقاً أننا لا نكون ذوي شــخصية مثاليـة منـذ الـولادة، وحقـاً ان تربيتنا منطوية على الكثير من السلبيات، فمن يا ترى مسؤول عنا بعـد ان كبرنا؟ ومن ذا يخسر إن بقينا هكذا؟ من المؤكد اننا بحاجة الى تربيــة ، ولكن من الذي يربينا؟ إن القرآن افضل وســيلة لتربيـة نفوسـنا، لذلـك وجب ان يعرض كل شخص نفسه على القرآن ليعرف انحرافاته.

والعقبة التي تعترض طريق التربية الذاتية هي عدم اقتنــاع الفــرد بانـه المعني بالتوجيه، بل يزعم كل شخص ان غيره فقط المقصود، امـا هـو فيجعل نفسه مقدساً عن شمول التعاليم له. من هنا لابد ان يتجاوز الفــرد هذه العقبة بالايحاء الذاتي بانه معني مباشرة بهذه التعاليم. وان كل قصـة يجد مثالها في نفسه إذا عمل ما عمله بطل القصة، وان كـل مثل يجـد

تطبيقه في ذاته إذا جسّد مغزاه. وان كل ثواب سوف يناله هو ان عمل الخير، وان كل عقوبة ستحيط به إن اقترف خطيئةً، وهكذا يجعل نفسه تدور عليها آيات الكتاب ليتمكن من تربية ذاته وتزكيتها.

من هنا جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: "كان اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ احدهم القرآن في شهر واحد او اقل، إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلاً، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسأل الله تعالى الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار". (١)

هذا عن الثواب والعقاب، اما عن القصص التاريخية فكيف يمكن تزكية النفس في ضوئها؟

يقول فيها الإمام الصادق عليه السلام "عليكم بالقرآن فما وجدتم آية نجا بها من كان قبلكم فخذوه وما وجدتموه مما هلك بها من كان قبلكم فاجتنبوه". (٢)

بهذه الكيفية نستطيع كشف الانحرافات التي تنطوي عليها نفوسنا، لكي نستعد لتقويمها بالقرآن. كما نقدر على فهم الآيات بصورة اشمل واعمق إذ ان ازدواج القانون الموجود في القرآن بتطبيقه الكامن في النفس، أفضل وسيلة لفهم كلا الأمرين.

---

(١) الصافي، ج١، ص٤٤.

(٢) المصدر، ص١٠.

منهج التدبر في القرآن

قبل ان نستعرض المنهج لابد ان نذكر امرين:

أ- ان المنهج تلخيص لما سبق في الصفحات الماضية بصورة مفصلة، انما لخّصناها لتبقى عالقة بالأذهان فلا تُنسى.

ب- كما ان للقرآن جانبي التزكية والتعليم، كذلك لمنهج التدبر، ونحن ندمجهما ببعضهما لصنع البرنامج المتكامل:

١- الهدف من التدبرهو تكوين شخصية القارئ والوصول الى اهدافها المشروعة ، ومعرفة الحق والقوة الكافية لتنفيذه.

٢- ويعني التدبر: التفكر المنطقي في المعنى الحقيقي للآية. بينما يعني التفسير بالرأي: الاستغناء عن هذا التفكر باختلاق معنى للآية ، والتدبر واجب والتفسير بالرأي حرام.

٣- ومحور التدبر البحث عن القوانين العلمية التي انطوت عليها آيات القرآن او المناهج التربوية التي صيغت بها هذه الآيات، وبكلمة

واحدة؛ معرفة ظاهر التربية وباطن العلم من القرآن.

٤- ويقتصر محور التدبر على الحقائق التي يصل الى فهمها فكر المتدبر، (ويُسمى بالمحكم) اما مالا يفقهه المتدبر فيدعه الى حين يفقهه (ويُسمى بالمتشابه).

٥- لمعرفة ظاهر لفظ القرآن يجب الرجوع الى اللغة؛ بشرطين:

الاول: تصفيتها من رواسب المناخ المحدودة الضيقة، والتركيز على معناها العربي الصافي.

الثاني: التفكر في المادة الاساسية التي تنبثق عنها سائر المعاني الخاصة، وهكذا يمكن جمع موارد استعمال اللفظ لنبحث عن معنى واحد مشترك بينها فنتمسك به.

٦- اجمع موارد استعمال اللفظ في القرآن وقارن بينها، لتعرف ما هو المعنى الجامع المشترك بينها حسب ما يهدي اليها سياق كل واحد منها.

٧- اطرح على نفسك هذا السؤال كلما تدبرت في آية: لماذا استخدم القرآن هذه الكلمة، ما هي ميزتها عن كلمات مترادفة معها؟ وابحث عن الجواب في إطار المادة الخامسة والسادسة.

٨- ابحث في التفسير الصحيح، واحذر من تحديد عموم القرآن بخصوص مورد نزوله، او بتطبيق تاريخي واحد. كلا.. اهتد بالمورد والتطبيق الى امثالهما، وتعرّف من خلالهما الى الصفات التي اوجبت نزول الآية او تطبيقها عليهما.

٩- قسّم ظاهر القرآن الى سبعة اقسام: الى امر، وترغيب، وزجر، وترهيب، وقصص تاريخية، ومثل بيانية، وجدل مع الاعداء، فكّر (!) هذه الآية تنطوي على كم قسم منها؟

١٠- وتدبر في باطن الآية عن علاقة جملة بأخرى وآية بثانية، ومجموعة آيات بأخرى، وفتش عن نوعين من العلاقة بينهما:

أ - علاقة علمية بحيث يعتبر الواحد سبباً للثاني او مسببين لسبب ثالث.

ب - علاقة تربوية بحيث يكون الواحد مستوجباً للثاني، حتى يكون المجموع منهجاً متكاملاً لتربية الفرد وتزكية نفسه.

١١- عليك ان تتحلى بصفات نفسية وعقلية حتى تتمكن من اكتشاف حقائق القرآن وهي:

أ - الإيمان بالوحي، وانه وثيقة بينك وبين ربك وخطاب مباشر اليك من خالقك.

ب - الاستعداد لتطبيق تعاليمه والتسليم لافكاره حتى ولو خالفت مصالحك او تناقضت مع تقاليدك السابقة وافكار مجتمعك.

ج- التركيز في بؤرة واحدة بحثاً عن الحقيقة، ويدعى بالتروّي وهو- أي التركيز- عمق التدبر البعيد، وبغيره تصبح المواد الاخرى في هذا المنهج قشوراً بغير لب.

د - الشجاعة في التمسك بالحق والثقة بعقلك او بما يهدي اليه من الواقع.

١٢- ابحث عن تطبيق خارجي حي لمواضيع القرآن الحكيم، ابحث

عن اشخاص يصفهم القرآن وابحث عن اوضاع يبيّنها القرآن، وابحث عن نتائج يتحدث عنها القرآن .

١٣- طبق القرآن على نفسك، لتجد فيها كل ما شرحه الكتاب، ولتخشَ عما قد يصيبك مما بينه.

الفصل الثاني

فلسفة القرآن الحكيم

ما هو الوجود؟

١- التعريف.

لعل مفهوم الوجود ابسط واعقد المفاهيم في وقت واحد، إذ اننا نتعايش مع الوجود في كل شيء، ولكنه بعيد عنا حينما نحاول فهم كنهه، وهو تماماً كالروح نعيش بها ونعيش منها ولكننا نظل نجهلها ابداً.

ومن هنا لا نجد تعريفاً دقيقاً للوجود، الا القول بانه ما نرى آثاره في كل شيء.

٢- نقاش حاد.

وقد أثير نقاش حاد بين الفلاسفة حول طبيعة الوجود، ادى ببعضهم الى تبني آراء شاذة غريبة، كالقول بانه ليس في إطار التحقق شيء، سوى الوجود الذي هو الله - وهو الخلق- وضمنه التطورات جميعاً.

وقد انقسم انصار هذا المنهب الى فريقين: فريق آمن بعظمة الله و كفر

بقدرته الدائمة على الكون، وقال: ان الله - تعالى عما يشركون- هو في درجة عالية من الوجود، اما الخلق فهو في درجة دانية، وليست عملية الخلقة سوى نزول من الدرجة العالية الى درجة دانية ، وهؤلاء هم الفلاسفة المشائيون ومن اتبعهم من المتكلمين.

وفريق آمن بعلم الله بكل شيء، وقدرته على كل شيء، ولكنه جرّد الله - سبحانه - من عظمته، فقال: ان كل شيء هو الله؛ بلا فرق بين كبير وصغير وجليل وحقير، ولا فرق ابدأ بين الله وخلقه. بل مفهوم الخلق حجاب بين الله ونفسه سبحانه لان الله ليس غير خلقه.

وهؤلاء الرواقيون ومن ضاهأهم من مذاهب الفناء الصوفية .

وجاء القرآن بمذهب جديد يمثل التوحيد النقي من الشرك والجحود، فقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحديد/١-٢)

وقال: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة/١).

والتدبر في هاتين الآيتين يهدينا الى الحقائق التالية:

١- إن كل شيء يُرى في السماوات والارض شاهد على تقدس الله، وتنزهه عن مشاركة مخلوقاته في صفة الذل والعجز والتحول.

٢- وهو من جهة اخرى ليس بعاجز عن التأثير في خلقه، بعلوه عنهم وتقمصه المرتبة الشديدة من الوجود، كما قال الفلاسفة الذين

وضعوا اللـه سبحانه في برج معزول عن الخلق. بـل هـو العزيـز القـادر وليس بالذليل العاجز.

٣- وبقدرته التامة يمتلك السماوات والارض فيحيـي ويميـت وهـو على كل شيء قدير.

ويفسر الامام عليه السلام هذه الحقيقة في حديث حكيم حين يقول بعد ان سئل عن اللـه جسم او لا جسم، فقال:

" ان للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب : إثبات بتشبيه، ومذهب النفـي، ومذهب اثبات بلا تشبيه. فمذهـب إثبـات بتشـبيه لا يجـوز، ومذهـب النفي لا يجوز ، والطريق في المذهب الثالث إثبات بلا تشبيه".

إن المذهب الاول؛ هو مذهب الصوفية الذين تصوروا ربهم انه مثلهم، وعرّفوا الوجود بانه كل شيء في العالم وليس سـواه شـيء ابداً، وهـو يقتضي وجود اللـه شبيهاً بخلقه.

والمذهب الثاني؛ هو المذهب الفلسفي الذي تصوّر اللــه سـبحانه في عزلـة عن خلقـه، بعيـداً عنهم، عاجزاً عن تصريـف شؤونهم، وجـاهلاً بما يعملون - سبحانـه-.

وكلاهما يخالفان المذهب الإسلامي الذي يرى ان اللـه سبحانـه حـق، مبايـن عن الوجود. وان الوجود حقيقـة قائمـة به ومملوكة لـه. فهنـاك شيء هو اللـه، وشيء هو الوجود؛ وليـس بينهمـا صفـة مشتـركة، إذ ان الشيء الاول خالق مالك قدوس، والشيء الثاني مخلوق مملوك له.

أبعاد البحث في الوجود

وللبحث في طبيعة الوجود عدة ابحاث تتصل مباشــرة بـأهم قضايـا المبدأ والمصير، والتي هي المواضيـع الاساسـية الـتي عالجهـا القـرآن الحكيم، وهي بالتسلسل:

١- الفرق بين الوجود والموجود.

٢- التباين بين اللـه والخلق في الصفات والأسـماء.

٣- طبيعة الخلق.

والسبب في توالي هذه المسائل وتسلسلها الفلسفي هو الخلط الشديد بينها، الذي ادى بالبشر الى ضلالات كبرى في الحياة.

فمن الخلط بين الوجود والموجود انطلـق البشـر الى القـول باصالـة الوجود (لا الماهية)، وتجاهلوا الفــوارق المائــزة بـين طبيعـة الاشـياء، ودفعت هذه الجهالـة بهم الى ضلالة اخرى هـي: الخلـط بـين الوجـود والمُوجِد، فاحتجبوا عن اللـه سبحانه ببعض خلقـه.

وهكذا تسلسلت الاخطاء: الموجودات هي طبيعة الوجود، وطبيعة الوجود هي الموجدة لذاتها، وانتهى!

فعلينا إذاً ان نبحث اولاً عن الفرق بين الوجود والموجود، وثانياً المباينة في الصفات بين الوجود والخالق، واخيراً طبيعة الخلق لهذا الوجود.

وقبل ان ننطلق في رحاب هذه البحوث العميقة ، ينبغي ان تتذكر عقولنا، ونثق بان اثارتها هي الوسيلة الوحيدة الى معرفة اعمق الحقائق الكبرى. فمن العودة الى العقل نستطيع ان نعرف حقيقة ذواتنا التي نجدها كالظلال المحددة التي يعود تحققها الى ما سواها، لاننا – باثارة عقولنا– نستطيع ان نفهم عدم امكانية الجمع بين المتناقضين، وانه لو كانت نفوسنا قائمة بذاتها، لكانت اقوى وأدوم مما هي الآن.

وباثارة عقولنا نستطيع معرفة مدى الصعوبة في الاهتداء الى سر الموجودات، والتي كانت هي العلة في ضلال الانسان عن هذا السر العظيم.

ذلك ان عقولنا تعودت على النظر في الامور الجزئية ذات الابعاد المحدودة، ولذلك فهي تقيس الاشياء الكبيرة بها.

إن الوجود الذي يقوم به كل شيء وفي كل زمن، لابد ان تكون عظمته وسعة ابعاده سببين من اسباب غموضه على العقول الضعيفة.

لابد اننا نهتدي الى هذه الحقائق حينما نعصر انفسنا عصراً ونحاول الاحاطة علماً بسر الموجودات، والذي يعرضنا ايضاً لخطر التوهم،

ذلك لاننا نحاول دائماً الايحاء الى انفسنا، باننا احطنا فعلاً بكل الاسرار، والوجود اجلّ شأناً من ان يكتنه بين لحظة واخرى لانه شـديد الظهـور واسع الشمول.

والخلاصة: اننا باثارة العقل والتجرد عن السابقيات الضيقة الأفق، نجـد ان الوجود حقيقة ظاهرة جداً ولكنها - لشدة ظهورها- خافية عن اعيننا، وانها بشمولها وعظمتها محتجبة عـن العقـول الـتي تعـودت النظـر في الامور الجزئية.

والان ، لنعرف حقيقة الوجود.

حقيقة الوجود

لابد ان نمهد السبيل الى معرفة حقيقة الوجود ببعض الحقائق:

١- اننا لم نعرف معاني الالفاظ التي لم نزل نستعملها إلاّ عن طريق الايحاءات الخاصة التي اكتشفت استعمال الكلمة بادئ ما سمعناها. فحين كنا صغاراً سمعنا لفظة الماء ورأينا الاشارة الى مادة سائلة فعرفنا ان هذه اللفظة خصصت لهذه المادة الخاصة، وبكثرة الاستعمال تطور مفهوم الماء بوعينا، حتى شمل كل شيء يملك ذات الخصائص الموجودة في هذه المادة.

ولذلك، فإن الالفاظ توحي إلينا بالمفاهيم الجزئية، التي استعملت فيها بادئ الأمر، وعن طريقها يستشف الفكر البشري بعض الابعاد الكلية.

وهنا تكمن مشكلة الفكر البشري في معرفة الحقائق المطلقة ، لانه يستصعب التحليق فوق الاطارات الخاصة التي تكتنف الالفاظ التي تُعتبر القنطرة الوحيدة الى المعاني المطلقة.

ولذلك يجب على الباحث الفلسفي التخلص من "اطارات الألفاظ" الجزئية، بجعل اللفظ طريقاً الى المعاني التي لا يمكن بيانها باللفظ ابداً. فعلينا حين نستعمل لفظة الوجود الاّ تتقيد بحرفية الكلمة وجزئيتها، بل نحلّق بعيداً لنتصور حقيقة مطلقة.

٢- لفظة "العدم" من الاضافيات التي لا تعرف الا بالنسبة الى شيء آخر، تماماً كلفظة " اكبر، واصغر، وفوق وتحت" وما اشبه . فينبغي لمن سمع كلمة العدم ان يسأل عن الغرض منها، انه عدم أي شيء؟ فعدم الدار يختلف عن عدم البستان وقد يجتمع عدم الدار مع وجود البستان. ومن هنا فحين نقول: عدم الوجود، لا يعني عدماً مطلقاً بل عدماً معيناً فقط.

٣- إن انسجام الحقائق بعضها مع بعض وانسجام النفس معها بالاطمئنان والارتياح، لهو احد المقاييس الثابتة للإنسان التي يستكشف بها حقيقة الاشياء.

فمثلاً: حينما تردد "نيوتن" في النظريات الفلكية ورأى وجود مشاكل علمية كثيرة في النظرية البطليموسية القائمة على اساس دوران الشمس، تنبه الى عدم انسجام الحقائق مع هذا المبدأ، فوضع نظرية "دوران الارض" فرأى المشاكل العلمية حلت على اساسها، وحصل انسجام تام بينها وبين سائر الحقائق، فتأكد عقم نظرية بطليموس ، وصدق نظريته هو.

وكذلك يكتشف البشر كثيراً من الحقائق حينما يتردد فيها عند اول نظرة لعدم انسجام هذه الحقيقة مع سائر الحقائق التي يعرفها الفرد

من قبل، وبالبديهة يعرف ان مجرد التعارض بينهما يعني عدم صحة إحداهما.

وبعد هذه النقاط لابد ان نعرف حقيقة هامة؛ هي ان الوجود شيء والموجود شيء آخر . فالموجود هو ما نراه ونلمسه، مثل القلم والدفتر، فكل منهما موجود، اما الوجود فهي الحقيقة التي تجعل القلم موجوداً، والدفتر موجوداً، وهي مشتركة بينهما.

وإذا كان الأصل في الاشياء هي ماهيتها وحدودها وانها لم تكن ثم كانت، لابد ان نفترض الوجود حقيقة وراء حقائق الموجودات، فهي نبعها الفياض الذي يعطيها الاستمرارية في التحقق والظهور.

والآن لنبحث عن الأدلة التي تهدينا الى طبيعة الوجود، ولابد ان نعرف ان اثارة العقل هي الوسيلة الوحيدة الى ذلك، وليست الغاية من سرد الأدلة سوى نوع من الاثارة.

١- تشابك العدم والوجود.

ان كل موجود يطرأ عليه الوجود بشهادة تحدده بالعدم. فمن الذرة الصغيرة حتى المجرة الكبيرة، يشكل العدم جزءاً من حقيقته، فمثلاً يشغل مساحة الذرة فقط بنسبة واحد في ..../...١، اما الباقي فهو عدم، وحجم المجرات الذي لا يحدده الخيال، يمكن ان يصغر لو نقيناها مما نشاهدها فيها من العدم الى بضعة عشرة مرات من حجم الشمس فقط.

وهذا التشابك يهدينا الى ان طبيعة الأشياء التي نراها ليست هي الوجود، بل الوجود شيء والموجود به شيء آخر.

ولعلنا – لو تقدم بنا العلـم– عرفنـا ان وجـود الموجـودات لايعـدو ان يكون بعض مراتب الوجود نفسه.

٢- الصلة بين العدم والوجود:

هل الكون حادث؟ نعم لانه متطور، ولأن القانون العلمي اثبت وجـود عمر محدد للكون، وانه لا يمكن ان تسير حـرارة الكـون مـن الصفـر الى الواحد بل انها تسير بصورة عكسية تماماً من الطاقـة الى "لا طاقـة" حتى تنتهي طاقات الكون جميعاً.

وبعد:

ان حدوث الكون دليل على ان ذاته لم يكن موجوداً، وهل يمكن ان يكون شيء ذاته الوجود ويكـون معدومـاً في لحظـة مـن الزمـن. افـلا يكون هذا تناقضاً ظاهراً؟

ان التفسير الوحيد لوجود الكون بعد عدمـه يكمـن في القـول: بعـدم انقلاب الذات من العدم الى الوجود، بل اعطاء نور الوجود للعـدم عطـاءً مستمراً، بحيث لو توقف العطاء تحولت الموجودات الى العدم.

وهذا التفسير يهدينا الى الفـرق الكبيـر بـين الوجـود كحقيقـة ثابتـة ظاهرة بذاتها، والموجود كظل متطور ظاهر بغيره.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة سبحت اسم اللـــه، كمـا ابتـدأت سـور الكتاب باسمه العظيم، وحين نسأل عـن معنى الاسـم في اللغـة ، نجـد انـه العلامة والدليل الى شيء ما، ثم حين نعود الى القرآن الحكيم نجد ان هـذا الاسم كان سبباً في خلق الاشياء، من ارض وسماء، ونجد في آية اخرى:

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (هود/٤١)

ان التدبر في مجموع هذه الآيات يهدينا الى ان اسم اللـــه، المقـدس، هو النور الذي خلق به السموات والارضين، وهو الذي سميناه الوجود، دون ان نستطيع تحديده لسعته وشدة حقانيته المانعة عن احاطتنا به.

فهو ذاته النور الذي اشرقت به الأرض فقال اللـه: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر/٦٩)

وهو كذلك النور الإلهي الذي مثّلـه القـرآن بمشـكاة فيهـا مصبـاح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكـب دري قـال: ﴿ اللـه نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ (النور/٣٥)

وكذلـك هو العرش (١) الذي استوى عليه اللـه سبحانه، الـذي قـال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه/٥)

وقال:﴿ اللـه لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل/٢٦)

وهو المثل الأعلى الذي قال عنه القـرآن: ﴿ وَللـه الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (النحل/٦٠)

وهو ايضاً: جوهر اسماء اللـه الحسنـى التي قـال عنها الكتاب: ﴿وَللـه الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الاعراف/١٨٠)

---

(١) في تفسير لكلمة العرش قال الامام علي بن الحسين عليه السلام: هـو نـور الانوار ومنه ضوء النهار. واضاف: ولو أحسّ مما فوقه ما قام لذلك طرفة عـين بينه وبين الاحساس حجب الجبروت والكبرياء والعظمة والقـدس والرحمة ثـم العلم، وليس وراء هذا مقال. [بحار الأنوار/ ج٥٥/ ص٢٥]

وقال: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى ﴾ (طه/٨)

وهو ايضاً الاسم الذي يدعو العباد ربهم به حين يجأرون. (١)

ان تذكرة القرآن بحقيقة هذا الاسم الذي لا يُهتدى اليه دون المزيد من اثارة العقل باتجاه سماته، وآياته.. ان تذكرة القرآن به لا تنحصر بهذه الآيات، اذ نجد في اكثر آيات القرآن توجيهاً صريحاً او مستبطناً اليه.

فمن كل آية في القرآن يشع نور هذه الحقيقة: ان الخلق بحاجة مستمرة الى الخالق الذي امسك السموات والارض ان تزولا.. ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده.

قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (فاطر/٤١)

والله سبحانه وراء كل علم وعمل فلولا دوام الحاجة إليه لما كان كل شيء فقيراً إليه، ولما نسب كل فعل الى قدرته بصورة مباشرة. بلى ان نوره هو الذي يمسك الكائنات ان تزول زوالاً، فهو الذي يعطيها الوجود فيضاً بعد فيض وخلقاً بعد خلق. لنستمع الى الآية الكريمة:

---

(١) في الدعاء المأثور عن النبي والمقتبس من وحي القرآن الحكيم: اللهم اني أسألك باسمك الذي إذا ذكرت به تزعزعت منه السموات وانشقت منه الارض وتقطعت منه السحاب، وتصدعت منه الجبال وبالاسم الذي وضع على الجنة فأزلفت وعلى الجحيم فسعرت، وعلى النار فتوقدت وعلى السماء فاستقلت وقامت بلا عمد، وبالاسم الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وإسمك المكتوب على اجنحة الكروبيين.

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الانعام/٩٥-٩٩)

وكذلك القرآن كله مذكر بهذا الاسم العظيم الذي لو تنبه اليه الفرد، عرف ضلالة اولئك المتصوفة، الذين لم يفقهوا حقيقة الوجود، انه نور مقدس من الله، يعطي الاشياء خلقها، ويمسكها ان تزول، وهو بيد الله سبحانه.

نظرة الاسلام في الخلق

ومن معرفة حقيقة الوجود نعرف النظـرة الاسـلامية في الخلـق، إذ ان الخلق لا يعدو ان يكون ايجاداً مستمراً للاشياء.

فالكون موجود بينما نور الوجود قائم بالله، فالله سـبحانه هـو القيـوم القائم بذاته، والذي تقوم الأشياء به!

ويجب ان ننتبه الى لفظة الباء ههنا، فهي عميقـة الدلالـة على طبيعة الصلة بين الخالق والمخلوق، اذ انها تدل على "التأثير بلا تأثر".

فالله، يمسك السموات والارض ولكن دون ان يكون ذلك بعمل منه يحتاج الى حركة وتغير ونقصان وبالتالي تعب وارهاق.

بل انه سبحانه لشدة فعاليته، وشمول قيمومته، يخلق الأشـياء بـدون ان ينقص منه شيء او يحتاج الى تطور فيه.

فهو ليس بحاجة الى الهبة بجزء من كيانه ليصوغ من كينونته الأشياء (كما تصورت الفلسفات الجاهلية) بـل ان نظـرة منـه تكفـي لانقـلاب

الظلمات الى النور. إذاً فطبيعة خلق اللـه سبحانه لا تخرج عن اطار حدين اثنين:

١- فعل وفاعلية وتأثير وتكوين.

٢- بلا انفعال ومفعولية وتأثر وتكوّن.

ومن المستصعب على الفكر البشري، وقد تعود على مباشرة المخلوقات، ان يتصور الخلق الأول إذ انه لا يخرج عن اطار فاعليات البشر التي هي "تأثير وتأثر" فبقدر ما يؤثر الفاعل في شيء يتأثر به، فهو يستنزف منه الطاقة ويورثه التعب والارهاق!

بينما اللـه بعكس ذلك تماماً فهو متعال عن التأثر والتطور.

ومن هنا جاء في الحديث : ان الامام علياً عليه السلام سأل خطيباً من اهل الكوفة يتكلم في الاستطاعة، فقال له: أمع اللـه تستطيع ام بدونه؟ فقال: لا ادري ما اقول. فقال الامام عليه السلام ايهما قلت ضربت عنقك. قال: فما اقول يا امير المؤمنين؟ قال : قل: باللـه استطيع، فليس اللـه داخلاً في الانسان حتى يكون الخلق في صفه ويكون شريكاً له سبحانه. وليس -من جهة اخرى- مزايلاً عن الخلق بعيداً عنه حتى يكون الخلق مستغنياً عنه مستطيعاً بدونه، بل هو مؤثر في الخلق دون ان يكون متأثراً به سبحانه.

آيات وتفاسير

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل/٤٠)

والقول هنا كناية عن المشيئة الإلهية التي حين تريد ان تخلق شيئاً لا تحتاج الى حركة او عمل بل تبدعه ابداعاً.

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر/٦٩)

فالنور هنا تعبير لطيف عن تلك الطاقة (ان صح التعبير) التي تجعل الأشياء موجودة وهي مملوكة لله.

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (فاطر/٤١)

ويدعى ذلك الأمر الذي يعطي الوجود بصورة مستمرة بالعرش - في لغة القرآن الكريم- وقد جاء فيه:

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه/٥)

﴿ اللهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١)﴾ (النمل/٢٦)

---

(١) جاء في تفسير الآية عن الامام امير المؤمنين ﷺ : العرش ليس هو الله، والعرش اسم علم وقدرة وعرش فيه كل شيء والله على العرش استوى - كما قال- والعرش ومن يحمله ومن حوله العرش. والله الحامل لهم الحافظ لهم الممسك الدائم على كل شيء وفوق كل شيء وعلى كل شيء.

نتائج النظرة الاسلامية حول الخلق

إن نظرة الخلق الإسلامية تنسجم بمجملها مع سائر الحقائق المكتشفة، مما يزيدنا ثقة بها وايماناً بصدقها، والحقائق التالية في الوقت الذي هي استعراض لمدى انسجام النظرة الاسلامية مع سائر الحقـائق المشـهورة، فإنّ ذكرها يفيد من جهة اخرى، هـي انهـا تشـكل زوايـا المقارنـة مـع النظريات الفلسفية الاخرى:

١- مشكلة العدم.

لقد تعود الماديون اثارة الشبهة في وجـه المؤمنـين بالسـؤال: كيـف يمكن خلق الاشياء من اللاشـيء؟ إلا ان النظـرة الاسـلامية في الخلـق تنسف هذه الشبهة بسرعة، إذ ان اللاشيء لم يتسبب في ايجاد الشـيء. ولا ان اللـه خلق الأشياء من " لا شيء" بل ان اللـه تعـالى لا مـن شـيء خلق الأشياء. فهو باعث الخلق، وهو مبدئه. وبتعبير آخر: ان الوجود لم

يصدر من العدم، ولا ان العدم تحول الى الوجود، بل ان اللـه لشدة فاعليته وشمول قيمومته افاض من نوره فتحققت الأشياء وظهرت.

إلا ان الحقائق الموجودة لم تصبح بعد الخلق قائمة بذاتها حتى تأتي الشبهة بانه كيف تحول الزائل بذاته الى قائم بذاته، والذاتي لا يتطور ولا يتغير ؟

ان طريقة الإجابة على هذه الشبهة: القول بان الأشياء كانت ولم تزل فانية بذاتها، وممكنة ان تقوم بغيرها، وسواءً بعد الخلق او قبله فان الأمر لم يتغير.

٢- مسألة البعث.

وبما ان العدم لم يتحول الى وجود، بل ان المعدوم الذي كان من طبيعته امكانية الإيجاد، رُش عليه نور الوجود، فبقدره اكتسب من النور الظهور، فان "اعدام" الموجود لن يكون مستحيلاً امام قدرة الخالق العظيم. وثم "اعادته" الى الوجود ممكنة ايضاً، إذ لا يعدو ان يكون مثل اللوحة التي نوجه إليها النور فتظهر ثم نذهب بنورها فتعود مظلمة ثم نعيد النور إليها.

ان مسألة البعث ستكون عادية للغاية، لو سلمنا بنظرة الإسلام في الخلق، المبتنية على عرضية الوجود بالنسبة الى الموجودات القائمة بغيرها.

٣- مسألة التطورات.

والتطورات المفاجئة لا تعدو مشكلة فلسفية كما لا تعدو قفزة الطبيعة مشكلة اخرى. إذ ان يد الخلقة لم تقصر عن المخلوقات في لحظة بل

هي مبسوطة عليها، مستطيلة فيها.

فالله سبحانه حين خلق الأشياء لم تقم بذاتها، بل لا تزال محتاجة الى فضل الله الذي يعطيها الاستمرارية في الوجود. وعليه: فان كل لحظة تمر عليها تختلف عن اللحظات السابقة.. او اللاحقة . وعلى ذلك؛ فكل لحظة يخلق الله الأشياء خلقاً جديداً، ولا مانع لديه ان يخلقها في طور جديد ايضاً.

ان تدخل القدرة الغيبية ليس كما يُظن يتحقق بظهور أيادٍ طويلة واجهزة ضخمة، من السماء الى الأرض، كلا، بل بما ان خلفية الموجودات هي من عند الله، فان تغييرها انما هي من داخلها، من خلفها، من حيث وجودها الذي يوهب لها بصورة مستمرة.

ولست بحاجة الى تغيير لون لوحة تركز عليها الضوء حتى تبدو بشكل جديد بل نهاية ما يتطلب الأمر منك تغيير زجاجة "المصباح" الذي تستخدمه للاضاءة.

بل حتى التطورات التدريجية ليست غير تغيرات في الخلق، فهي خلقة جديدة بعد خلقة اخرى.

٤- مسألة المعاجز.

والمعاجز كذلك، ليست بعيدة عن روح النظرة الإسلامية في الخلق، إذ هي هي الخلقة ، تعدم او تغيرّ ببساطة، ما دامت الأشياء قائمة بغيرها!

فالنار التي تعود برداً وسلاماً تبدو لدينا معجزة، ولكنها في الواقع ليست سوى عملية واحدة مع النار التي تحرق الأشياء ، والفرق ان الله

كان يخلق النار ويخلق معها الحرارة في كل لحظة، اما الآن فخلق النار ولم يخلق حرارتها، بل خلق مكانها برداً وسلاماً.

٥- مسألة الطبائع.

والقوانين الكونية ليست سوى سنن إلهية ، قد قضى الله على نفسه اجرائها فهي اقدار، ليس إلا.

٦- مسألة الشرائع.

وإذا استطالت قدرة الله على الأشياء فاستطاع تغيير ماشاء تغييره، فانه سيكون قادراً على بعث الأنبياء ودعمهم بالمعاجز، وارسال الكتب معهم.

اللـه في القرآن

ليس اللـه في تذكرة القرآن وتوجيهه وجوداً ولا موجوداً، وانما هـو حقٌ قيوم.

فالوجود رغم انه اسم مقدس من اسماء اللـه الحسنى، ورغـم انـه نـور يُظهر حقائق الكـون، ورغـم انـه يختلـف عـن الموجـودات -حسـبما سبق- رغم ذلك كله فهو ليس بإلــه.. ولا اللــه سـبحانه بوجـود، انمـا الوجود خلق من خلقه، يتصرف فيه كيفما يشاء يعطيه لشـيء فينقلـب ظاهراً مخلوقاً.

إن اقرب الوسائل لمعرفة ان الوجود مخلوق، انما هـو التصـرف فيـه وإعطاؤه مرة لشيء ثم سحبه منه. فهو إذاً حقيقـة يديرهـا مالكهـا اللــه القدير.

والموجودات ليست بإله هي الأخرى، بـل النجـم والشـجر يسـجدان للـه، والشمس والقمر يجريان بتدبير اللـه والأرض خاشعة بامره.

وأبسط الأدلة الى ذلك، ان معالم الضعف بارزة في الأشياء، ولا ولن تكون الله القدير سبحانه.

ان المبدأ الفلسفي الذي يقسم الوجود إلى ممكن وواجب، ويتصور ان القسم الأول هو الخليقة، والقسم الثاني هو الخالق. ان هذا المبدأ مرفوض في القرآن . إذ ان الله ليس بوجود ولا الخليقة بوجود، انما الوجود نور مملوك لله، وموهوب للخليقة. فكيف يمكن ان يشترك الخلق مع الله في قائمة واحدة نسميها الوجود. بينما هي ثلاث قوائم: الله. الوجود. الخلق!!

والمبدأ الصوفي الذي يزعم ان الله هو هو ذات الموجودات. وكذلك المبدأ المادي الذي يحسب الخلائق هي ذات السيطرة الذاتية على نفسها، فهي هي الرب، ولا إله سواها. إن هذين المبدأين مرفوضين أيضاً.

ذلك ان الله اسمى من مخلوقاته، وأجل واعلى من ملكوته! فهو خلو من خلقه، وخلقه خلو منه، وبينه وبين خلقه تباين في الصفات،ولا اشتراك إلا في الألفاظ التي لم توضع الا في حدود امكانيات الخلق انفسهم.

إن الحد الفاصل بين الله وبين الخلق التباين المطلق بينهما. فكلما يجوز في الخلق يستحيل في الخالق وهكذا العكس.

وبهذا التباين نكشف اننا لا نقدر على تحديد الله، ولا على اكتشاف صفاته، لاننا نعيش في مناخ المخلوقين ولا نعهد صفة، الا بقدر ما هي ظاهرة في مخلوق ما. فصفة القدرة مثلاً نعرفها في الإنسان ، في التيار،

في العاصفة، في الكهرباء والذرة، صحيح انها صفة قدرة إلا إنهـا مثبتة حسب معرفتنا في المخلوق، فلا يمكننا - بطبيعـة التبـاين بـين الخلـق والخالق - قياسها على اللـه.. وهكذا صفة العلم والملك و..و..

ولكننا مع ذلك نستطيع ان نعرف ثبوت ما هـو أسمـى مـن صفـات القدرة والعلم والملك المتوافرة في المخلوقات بثبـوت مـا هـو أسمـى منها وأكبر في الخالق، الذي غرز في خلقه هذه الصفات المثلى. وقـد نسمي ذلك الأمر الاسمي والأكـبر مـن صفـات المخلوقـين بـالقدرة اللامحدودة، والعلم التام والملك الدائم. إلا انها لا تعـني بهـذه التسـمية ايجاد علاقة "بين قدرة الخلق" و"قدرة الخالق" حتـى تكونـان سـواء، او بين "علم الخلق" و"علم الخالق" أو"مشيئة الخلق" و"مشيئة الخـالق" ومـا اشبه.. إذ لا علاقة بينهما إلاّ علاقة المقابلة الشديدة الانعكـاس، بـل انمـا نريد بهذه التسمية ايجاد علاقة بين لفظ ولفظ، حتى نعرف اشارةً ما الى ذلك الأمر الأسمى، الثابت للخالق!

من هنا كان اثبات أية صفة لله لا يعدو ان يكـون اشـارة (في اطـار الفهم الذي نملكه) الى صفاته واسمائه دون ان يكون تحديـداً للـه او جعله في اطار المخلوقين وسحب صفاتهم عليه سبحانه!

فاللفظ مشترك بين اللـه وبين الخلق، كلاهمـا لـدى التسمية (قـدرة وعلـم وملـك) ولكن المعنى مختلف، بقدر ما هو مختلف ومتباين: اللـه وخلقـه، فأيـن هي القدرة المحدودة العرضية الضئيلة، من الاقتدار المطلق الدائم ابـداً عنـد اللـه، وأين هي معرفـة احدنـا بشيء، وعلم اللـه المحيط

بكل شيء، او ملكنا المتاع وملكوت الله للسموات والارضين؟!

ونحن نعرف ان الله حق، ولكن هل ان ثبوته يتشابه ووجودنا. كلا إذ ان الله حق، ثابت، قيوم بذات نفسه، ونحن موجودون قائمون بالله، وهل هي سواء قيمومة بالذات، وقيام بالغير؟! لا نستطيع ان نقول أنّ بينهما فرق كبير، حيث لا تشابه ابداً بينهما بل هما شيئان متباينان!

ومن هنا فأفضل صفة نطلقها على الله، هي صفة محورية تدور بين النفي والاثبات، النفي لقطع أية صلة تشابه بينه وبين خلقه، والاثبات للايمان بأنه اسمى من خلقه واكبر.

فهو القادر غير مقدور، والمالك غير مملوك والعليم ولا معلوم!

ولترسيخ هاتين الحقيقتين؛ حقيقة ثبوت الله وصفاته المثلى من جهة، ونفي الصفات المعروفة في المخلوقين عنه، لترسيخ ذلك في نفوس البشر التي تعودت على معرفة الخلق! كان لا بد من التقديس، والتسبيح، والتنزيه، بكلمة سبحان الله التي كثرت في القرآن، واعتبرت ركيزة الأذكار في الصلاة!

إن التسبيح يجعلنا فجأة امام الله، إذ انه ينفي عن اذهاننا المخلوقين فيظهر الخالق، ولانه من جهة ثانية، يحل عقدة مستعصية من نفس البشر، وهي العادة على تحديد الأشياء، لأن النفس البشرية مخلوقة من طبيعتها التحديد، فلما تقف امام الله وتعجز عن التحديد، تتورط في الشبهات العقيمة! كيف؟ واين؟ وماذا؟ بل حتى لماذا؟ وتريد ان تُخضع الله لمقاييس الخلق فتضل ضلالاً بعيداً؟ وهنا تأتي كلمة "سبحان الله" لتنقذ

البشر مرة واحدة من ورطته الكبيرة، وتقول له: إنك امام خالق المخلوقات، حيث تعجز الالفاظ وتنهار الحدود، وتنحسر المعارف البشرية الساذجة؟

وهكذا يحاول معرفة الله من جديد.

ان القرآن قد بدأ سوراً كثيرة بالتسبيح، وقال انه لسان ما في السموات والارض جميعاً، وأمر بالتسبيح بكرة واصيلاً.

وإذا كان يعرّف الله في القرآن، بنفي التشبيه بينه وبين خلقه فان صفاته الحسنة، انعكاس لهذه المباينة دون ان تكون صفات محدودة، مميزة متسمة بالكم والكيف والأين، فلا نعني من قدرته سوى نفي العجز عنه ، ولا من علمه غير نفي الجهل منه، وهكذا .. لانه لا يمكن تصور اللامحدود، او تعريف اللامتناهي!!

يبقى سؤال : كيف إذاً قدر البشر على نفي العجز والجهل عن ربهم، وكلما هنالك من صفة المخلوقين؟

والجواب ببساطة: وجود هذه الصفات في الخلق هدانا الى ان الله حق. فلو افترضنا وجود ذات الصفات في الخالق، إذاً وقعنا في المحال الذي هربنا منه، تصوّر لو انك رُميت بحجر ففحصته فلم تر فيه القدرة الذاتية، فقلت لابد ان تكون حركته من غيره، ثم افترضت ان يكون رامي الحجر حجر ساكن مثله، ألست قد تناقضت مع نفسك، إذ لو كان الحجر الثاني قادراً على التحريك وهو ساكن، فلماذا رفضت ان يكون الحجر الاول متحركاً بذاته؟..

والله سبحانه لو كان منطوياً على العجز لم تكن تحتاج اليه، إذ كفى بالمخلوقين عاجزين، انما اهتدينا الى الله القادر بعد ان شاهدنا صفات العجز في المخلوق.

من هنا لا نجد صفة عجز او ذل او صغار في المخلوق الا وتهدينا الفطرة الى تعالي الله عنها علواً كبيراً.

ولا نرى فعلاً محدوداً منظماً بتدبير حكيم، الا ونهتدي به الى الله، وكلّما وجدنا الفعل من الدقة والحكمة والفائدة اهتدينا الى نوع من صفات الله واسمائه الحسنى ، فلو وجدنا مثلاً وردة بديعة المنظر زاكية العرف، قلنا: سبحان الله اللطيف، أوليس يتصف باللطف (ودقة الصنع) من ابدع هذه الوردة؟ اما لو لاحظنا الاهداف العديدة التي صنعت من اجلها الوردة، من تنظيف الجو واشاعة العبق، لاهتدينا الى حكمة بارئها، اما إذا تصورنا الفوائد الصحية التي تصيب الإنسان من الوردة عرفنا ان خالقها رحيم بعباده.

ان آيات القرآن تذكرنا مرة بعد اخرى بنوع الافعال التي تشهد على صفات الله تعالى ، وقد تسبق التذكرةُ بالفعل، التذكرةَ بالصفة التي نهتدي بسببها إليها.

وها نحن نستمع الى القرآن يذكرنا بصفات الله:

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

قال تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

ان نظام الليل والنهار يهدي الى تدبير رشيد، والذي يهدي بدوره الى ان الله سميع عليم. فهل يدبر من لا يسمع؟ (او بالاحرى من لا يعرف ما يجري في محور تدبيره) او هل ينظم من لا يعلم؟

والثابت الذي لا يتغير يتسم بالعلو والكبرياء، فهو الحق وغيره الباطل الذي سيزول عاجلاً او آجلاً، إذاً فهو العلي الكبير، ومَن اكبر ممن يدوم بعد فناء كل شيء؟

ونظرة الى الارض وما بها من تراب ناعم، كيف ينزل الله عليه الماء ويحوله الى مصانع بارعة تنسج رداءً اخضر للارض. ان هذه النظرة تهدينا الى دقة صنع الله، وبالتالي الى ان الله لطيف خبير.

ونحن حينما نعبر بالغني عمن يملك شيئاً، ننسى انه لا يملك اشياء كثيرة، وانه قد يكون غنياً بمحض الصدفة. اما الله الذي له ما في السموات والارض، فهو وحده الغني الذي لا فقر معه وانه حميد لانه لم يرث الغنا، ولا جاءته صدفة، بل خلقها وابدعها ابداعاً.

وترى ما في الارض مسخرة لك ذليلة امامك. وفي البحار حيث تجري الفلك بأمر الله، ترى مدى النعمة عليك. ثم تنظر الى السماء فتخشى ان تنزل عليك، (وتتصادم نجومها) إلا ان الله امسكها عنك، فتسائل نفسك: افليس من احاطني بهذه النعم رؤوفاً رحيماً، ومن هو اوسع رحمة من الله؟

ان هذا النوع من البيان ليس طرازاً رفيعاً من الأدب الموجه فقط، -إن صادف ذلك- بل انه المنهج العلمي الذي يهدينا فعلاً الى الله الكبير. فنحن عاجزون، بطبيعة المحدودية التي بنا، عن ان نفكر في الخالق الذي لا تحيط به الحدود، فكان لابد ان ننظر الى المخلوقات التي نشترك واياها في المحدودية.. لنجعلها معبراً الى معرفة الخالق. التفكير انما هو في المحدود. وكلما تعمقنا في معرفة حدوده وآيات عجزه او سمات كماله.. توضح لدينا اكثر فاكثر صفة "المخلوقية فيه"، وبالطبع نهتدي هنالك الى بعض آيات الله، لانه مباين مع مخلوقيه..

فالمنهج القرآني يكرّس بيانه لمعرفة المخلوق، والنظر اليه وملاحظة جوانب الحاجة فيه، على ان ذلك معبر الى الله تعالى!

وهذا هو الطابع الذي يميز الحضارة القرآنية عن جاهليات الفلسفة الاغريقية التي تعمقت في ذات الله بعيداً عن النظر الى آياته، فضلّت ضلالاً بعيداً.

إن الله تعالى يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

وقبل ان نختم الحديث عن الله ينبغي ان نعرف ان النظر في الحياة يهدينا الى ان كل شيء مقدر تقديراً مناسباً ليحقق هدفاً معلوماً، مما يدل على ان المجموع ايضاً خلق لهدف معين، وهذا لا يهدينا فقط الى حكمة الله البالغة، بل وايضاً الى عقلانية الحياة، فليس اللانظام يشغل ولا مساحة بوصة واحدة من هذا الكون الفسيح، ولا نظام الا لحكمة معينة.

ومن حكمة الله التامة تنبثق نظرة القرآن الى "هدفية حياة الانسان"، فليست الحياة عبثاً ولهواً اراد بها الله سبحانه اللعب او اراد بها تنكيلاً، انما خلق الانسان وقدره، وبيّن له السُبل ويسّرها لكي يخضع للتقدير فيفلح، اما اذا اختار العكس فانه سيهوي الى مكان سحيق.

ففي الدنيا سيشتري ضنكاً في العيش وقارعة وراء قارعة، اما في الآخرة فسيجزي الله الذين آمنوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً.

ان هدفية الحياة تهدينا الى ضرورة الحساب. فإذ لا نجد في الدنيا حساباً دقيقاً وحاسماً للانسان تتطلع الى الآخرة التي سيحاسب فيها الكافر حساباً عسيراً، ويلقى جزاءه موفوراً.

فمعرفة اليوم الآخر نابعة من معرفة الله وبالذات من معرفة صفتي الحكمة والقدرة فيه، اذ الحكمة هي التي تهدينا الى ضرورة الآخرة والقدرة الى امكانها.

ومعالجة القرآن للقيامة، آتية من هاتين الزاويتين، وكلّما كملت فيه معرفة صفتي الحكمة والقدرة كلما زادت معرفته بالساعة، ودقة حسابها.

فلنستمع الى القرآن الحكيم:

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات/٥٦)

وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون/١١٥)

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الانبياء/١٦-١٨)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران/١٩٠-١٩١)

فهنالك غاية من الخلق هي العبادة، والتسليم لسنن الكون وشرائع الحياة، التي جعلها الله سبحانه ، وليست الغاية اللعب الذي يختلف جذرياً عما نلاحظه في الكون من آثار الحكمة وآيات الهدف. إن مسيرة الحياة تدل على انها الحق، وان الباطل لا حول له فيه، فليس هنالك ما يدعو الى تصور ان اللعب هو غاية الحياة، إذ اللعب نوع من الباطل، الذي يدمغه الله ويدعه زاهقاً.

وذوو العقول فقط يعرفون آيات الحياة، وما بها من لطف التدبير وعمق التقدير، في ليلها ونهارها، ذلك لانهم يعبرون من آيات الكون نحو تذكر الله، فلا قيام ولا قعود إلاّ وفيه نوع جديد من الإثارة نحو

الله سبحانه، ولذلك فهم يتفكرون فيما وراء خلق السماوات والارض من غايات حكيمة، ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً فكل شيء جعلته فيه حق ويهدف شيئاً مقدراً، أفيكون مجموعها باطلاً؟ سبحانك تقدست ان تفعل ذلك، كلا؛ إذاً فلا تعذبنا بنارك. حينما تحاسبنا بالحق. صحيح ان اعمالنا اليوم تذهب بغير حساب، ولكن هل يمكن ان نشذ نحن من بين كل المخلوقات في الهروب من الهدف؟ كلا.

ومن صفتي الحكمة والقدرة في الله سبحانه، نعرف ضرورة وامكانية الرسالة السماوية ايضاً. فلأن الله حكيم لا يخلق الناس ليعذبوا، ولا يعذبهم حتى يبين لهم ما يتقون، ولانه سبحانه قادر على ان يبعث اليهم رسلاً من انفسهم يهدونهم الى رضوان ربهم، نعرف انه بعث فعلاً انبياءه الذين ختموا بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكن بموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبقى الناس محتاجين الى هداة ميامين هم الأئمة الطاهرون عليهم السلام.

كذلك قال الله في كتابه:

﴿ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة/١٩)

﴿ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ

اللـه مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُــلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة/١٥-١٦)

إن مشيئة اللـه الرحيم قد قضت بإكمال النعمة على الإنسـان بحكمتـه البالغة التي لا يخلق البشر عبثاً، فلذلك أتمت الحجة على الإنســان، إذ بعث إليه رسولاً بشيراً ونذيراً لكي لا يقول: لو كنت يا رب بعثت إليّ الرسول لكنت اهدى مما كنت.

إن هذا الرسول وسيلة لهداية اللـه من اسـلم نفسـه لـه واتبع مرضاتـه وهدايته الى سبل السلام، والمعرفة التي هي الصراط المستقيم.

العقل في القرآن

حقائق تمهيدية:

١- إذا كان لكل باحث منهج للبحث ثم أسلوب للعرض نابعين من نظرته الخاصة الى العقل والمعرفة، فان منهج القرآن واسلوبه نابعين ايضاً من نظرته الآتية الى العقل والمعرفة، فلا منهج افضل من التوجه الذاتي، ولا اسلوب افضل من التوجيه الذاتي. فالتذكر والتذكير هما السبيلان المفضلان في حقل العقل والمعرفة، كما في سائر حقول الفلسفة وعلم النفس لدى القرآن.

وهذا بالذات منهج واسلوب ما سيأتي من الحديث انشاء الله.

٢- بمعرفة العقل، نهتدي الى المنهج السليم للمعرفة، وإلى طبيعة الإنسان النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإلى كثير من الحقائق الهامة. ذلك ان الرأي الحازم في حقل معرفة العقل يعطينا قاعدة راسخة للعلم وسُبُل تحصيله، إذ العقل هو السابقيات، التي بالإيمان بها

تملك الحجة القوية على صحة مداركنا فأفكارنا واستنتاجاتنا . ولدى الكفر بها ينبغي تصور قاعدة بديلة من احساس او خيال، نركن اليها في ذلك، كما ان الرأي الحازم فيه اثباتاً او نفياً يُعرّفنا تعريفاً اعمق بواقع انفسنا من حيث هي ذات قيم مثلى، ام ليست سوى مادة عمياء. وبمعرفة انفسنا تعرف الآخرين، ونضع الاسس السليمة لعلم الاجتماع فالاقتصاد فالسياسة.

٣- لا تجد اليوم احداً ينكر العقل، او يرضى بان يقال له مجنون، بيد إن النظرات مختلفة جداً حينما يحاول الانسان تحديد هذه الكلمة، فما هو العقل؟

فنحن حين نقول (العقل) نقصد به ذلك الامر الذي يهدينا الى الحق والخير والجمال ويأمرنا به، ويكشف لنا عن امتناع التناقض وامكان التسامي..و..و..

وفريق يقول (العقل) ويعني به مجرد عمل الخير ويكفر بما وراءه من "نور كاشف للخير آمر به"..

وفريق يؤمن بوجود ما يكشف الخير ويأمر به وانه اصيل في الانسان مفطور عليه ، ولكنه ينكر ان يكون ذلك شيئاً مختلفاً عن طبيعة الإنسان ويدّعي انه من ذاته، سواء كان ذاته الروح، او الجسم، فانه من ذاته.

بعد هذه الحقائق التمهيدية ينبغي تلخيص نظرة الاسلام في العقل عبر نقاط:

أ- ان معرفة كل شيء تتم بالعقل ، ومعرفة العقل تتم بذاته.

ب- العقل نور (او طاقة) موهوب للنفس فلا هو من ذات النفس ولا هو مكتسب من الخارج!

ج- تعتمد صحة العلوم البشرية على التسليم للعقل. ولذلك فان معرفة العقل هو بداية التقييم الصحيح للعلوم جميعاً.

د- معرفة الخير والشر تعتمد على العقل. والدعوة الى الخير آتية من العقل، ولا عقل لمن لا يعمل به.

هـ- المعرفة تربية اولاً، وتعليم ثانياً.

السبيل الى معرفة العقل

التذكرة الاولى التي نبّهنا إليها القرآن الحكيم وعلومه هي: ان العقل تختلف معرفته عن أي شيء آخر، وان السبيل الوحيد الى معرفته هي شدة اثارته، حتى يتنبه الى نفسه ويعي مكنونات ذاته بذاته.

وقد تبدو هذه الحقيقة مستصعبة لأمرين:

١- إن الانسان تعوّد أن يعرف الأشياء بمُعَرِّفات خارجة عنها، كمعرفة اللون بالعين ومعرفة العين بالإحساس ومعرفة الإحساس بالعقل، واما معرفة الشيء بذاته فلم يتعودها البشر، فهي مستصعبة عليه لعدم العادة فيه.

٢- إن جميع توجيهات البشر الفلسفية، تقيس معرفة العقل بمعرفة أي شيء آخر، وتحاول الحصول عليها بمساعدة امور خارجية. ولذلك فان طريقة القرآن جديدة عليها ومباينة من حيث الأساس مع الرواسب الفكرية لكل من له خبرة بالفلسفة البشرية او نصيب من توجيهها.

من هنا كان علينا توضيح هذه الحقيقة ببضعة نقاط:

أ- اذا تصورنا حقيقة العقل، فهي لا تعدو ان تكون واقع الكاشف عن حقائق الكون. ولا ريب في ان حقائق الكون لا تكشف عن ذاتها، بصورة آلية، انما يجب الكشف عنها باداة نسميها بالعقل. وإذا عدنا الى العقل نواجه حقيقة بديهية هي ان الحقائق التي لم تكن تقدر على كشف ذاتها لا تستطيع ان تكشف لنا عما سواها، وابسط مثل توضيحي لذلك، العين التي تكشف عن الأشياء لنا، ورغم ان طبيعة الأشياء موجودة قبل ان تكون هنالك أية عين، فان رؤيتها والكشف عنها من عمل العين- لا من عملها- وحين تريد العين رؤية ذاتها يعرف الانسان ان الأشياء التي عجزت عن ان ترينا ذاتها بدون العين (مثلاً في حالة اغماض العين) لن تقدر على ارائتنا العين، بل العين هي التي ترى ذاتها عبر مرآة او ما أشبه.

وبتعبير آخر؛ لايعدو ان يكون الكاشف عن الأشياء الجهل أم العقل. ولا يعدو ان يكون الكاشف عن العقل ذاته أم الجهل. لا ريب اننا لا نتردد في اختيار العقل ككاشف عن الأشياء، وعن ذاته معاً.

وكمثل مبسط؛ النور يكشف عن المظلمات، وفي الوقت ذاته يكشف عن ذاته، حيث لا يمكن ان يكشف عنه مظلم آخر. وبتعبير ثالث النور القادر على كشف الأشياء أليس بقادر على كشف ذاته؟ وكذلك العقل لايمكن ان يكشف عن كل شيء ثم يبقى مجهولاً.

ب- فكيف إذاً تستطيع العين ان تبصر نفسها. ببساطة انظر الى الأشياء

فإذا رأيتها بوضوح تعرف ان عينك سليمة، أما إذا غشاها الغبار فاعرف ان عينك مصابة . كذلك لو اردت ان تعرف عقلك، فأكثر النظر في العلم، في الحقائق التي بعقلك اكتشفتها ، ومن خلالها حاول تقييم عقلك (او بالأحرى فليحاول عقلك تحليل ذاته).

انهما عمليتان لابد منهما لكشف العقل: كشف الحقائق والعبور من خلالها الى واقع الكاشف تماماً كما تنظر الى الأشياء المضاءة بالنور لا لتكشف عنها، بل لتعبر منها باتجاه النور الذي اضاءها.

وهذه العملية (عملية العبور من المكشوف الى الكاشف) تشبه عملية العبور من الآيات الى معرفة الله سبحانه، حسبما سبق الحديث حولها مفصلاً.

ج- وبتكرار عملية العبور هذه يزداد وعي العقل لذاته ويقظته تجاه مكنوناته، وتشتد ثقته بقدراته، ويقتدر على كشف حقائق جديدة. (١)

وهذه الظاهرة (زيادة العقل بشدة إثارته) هي الظاهرة التي فشلت في تفسيرها فلسفات البشر. فقال ارسطو: المعلومات تكشف عن مجهولات جديدة، في الوقت الذي لا يمكن - ان نظرنا بدقة- ان تكون المعلومات التي كانت حتى قريب مجهولات وبحاجة الى الكاشف، تكون كاشفة لغيرها، بل الممكن والواقع هو ان المعلومات

---

(١) لكي تكون امناء جداً على نظرات القرآن الحكيم لابد ان نذكر بان العقل نور، ومن حيث ذاته عدم التأثر بالخارج ولا يزداد ولا ينقص مقدار نوريته، بل كل ذلك من حيث اضافته الى النفس، فكل ذلك المذكور اعلاه عبارة عن مدى زيادة العقل في النفس.

تزيد العقل قدرة علـى كشـف حقـائق جديـدة، فـالعقل لا المعلومـات يكشف كل شيء، وانما المعلومات تزيده قدرته. وقال بعض الفلاسفة: ان وعيي أنا شرط لوعي سوى انا، وانما العلم يبدأ مـن جمـع أنـا ، ومـا سوى انا فمراحل العلم (أنا - غير انا وانا + غير انا = العلم).

ولكن ليس من الصحيح تسمية العقل الذي يكشف الأشياء بـ"انا" لما سيأتي (من ان النفس مختلفة مع العقل) نعم؛ العقل لا يكشـف الأشـياء الا بعد وعي ذاته والثقة بها، ثم حينما يكشـف الاشـياء يعـود ليكشـف نفسه من خلالها.

وقال هيجل: تنطلق معرفة الإنسان من نقطة الجدل الذي سمّـاه بعـض ناقديه بفض الفكر نفسه. - ولعله عنى بذلـك ان الخارج يكـون وسـيلة ليس إلا - نحو المزيد من إثارة العقل.

وهكذا عـادت الفلسـفات عـاجزة عـن تفسـير ظـاهرة التفـاعل بـين المعرفة وبين العقل. في حين ان التفسير الصحيـح لذلـك : ان العقـل يتنبه لذاته، كلما تنبه للخارج.

د- ومن هنا فطريقة معرفة الأشـياء معرفـة العقـل الـتي تعـني زيادتـه أيضاً، والطريق الى معرفة العقل العبور مـن خـلال المعـارف الواضحـة إليه، ثم بعد تقويته العود الى الحقائق الغامضـة لكشـفها، وهكـذا حتـى ينكشف العقل بصورة واضحة لنفسه.

وربما يتساءل البعض: كيف تتم النظرة "العبورية"؟

والجواب: فرق كبير بين ان تنظر الى المرآة كسلعة تقتنـى، وبينهـا

كمعبر للصورة المنعكسة من الوجه العائدة الى الوجه ايضاً، ففي الصورة الأولى تكون النظرة ذاتية الى المرآة نفسها وفي الصورة الثانية تكون النظرة "عبرية" من اجل الوجه المنعكس عليه. ولعل الإنسان في تلك الحالة ينسى وجود شيء آخر غير العين، التي ترى والوجه الذي يرى، أي ينسى مؤقتاً وجود المرآة.

كذلك حين يلاحظ الفرد – معلوماته على انها اشياء قائمة، يختلف عما إذا لاحظها على انها منكشفات بالعقل بعد ان كانت غامضات ومنورات بالعلم، بعد ان كانت مظلمات، و متمايزات بنعوت واسماء، بعد ان كانت مختلطات في قائمة واحدة، فالخير الذي لا يرتاب عاقل في حسنه ، كان والشر سواء امام الفرد في لحظة غضبه العارم، إلا انه عاد فميزهما عن احدهما بعدئذ، والنظر العبوري يهدينا الى وجود امر ما في الفرد عندما اكتشف الخير بينما لم يكن من قبل.

إن ذلك الأمر الذي افترقت به حالتا الغضب والصحو هو ما نسميه العقل، وهو الذي يستيقظ كلما عبر الفرد من آياته إليه! وامتناع النقيض الذي يكتشفه الإنسان بعقله بعد سن الرشد او التميز ولم يكن يعرفه قبل، انه يدل على وجود العقل عند الفرد بعد ان لم يكن، وهو بذلك وسيلة لمعرفة العقل بذاته.

هـ- وهذا المنهج الجديد في معرفة العقل لا يختص بثبوت العقل، بل يكشف ايضاً لو اتبع مضبوطاً عن صفات العقل. واسباب زيادته ونقصانه وسبُل بلوغه الحقائق.

فأول ما يكشف عن العقل من صفات نفسية ارتباطه الوثيق بالمشيئة البشرية والتي تستنير او لا تستنير بالعقل، إذ العقل كأية نعمة موهوبة للإنسان.. رغم انها ملك الإنسان ومستجيب لحاجته، لا يفرض ذاته عليه، بل يخضع له خضوعاً، فأنت قادر على ان تستنير من عقلك فتفكر وتستطيع ان تدع ضوء عقلك، ولا تفكر ابداً، وإذا اردت ان تفهم ان الوقت نهار تستطيع ان تفهم ذلك بلفتة، اما إذا لم ترد فيكفيك ان تتوجه الى أشياء اخرى.

وهذه الصفة تهدينا الى اهمية التركيز في المعرفة، إذ ان التركيز لا يعدو التوجه التام الى حقيقة ما، باستعمال العقل كله فيها، كما ان البلبلة التي ليست سوى ضعف في الارادة وعدم القرار الحازم بها، تسبب الضعف العقلي لانها تفقد التركيز.

وحالات الانهيار العصبي الذي يأتي احياناً على الإنسان بسبب الغضب الشديد او الشهوة العارمة، او الحزن العميق، هو الآخر يضعف الارادة فيؤثر على نفاد العقل.

و- وإذا كانت الإرادة ضرورة عقلية بحيث يستحيل على البشر ان يهتدي دون ان يختار الهداية.. ولا ان يعرف دون ان يريد المعرفة، فقد ارتبط حقل التعليم بالتربية، والعرفان بالايمان، والعلم بالعمل.

إذاً، مادامت التربية هي القدرة على ضبط النفس حسب الإرادة الحرة، ولا يعدو ان يكون الإيمان والعمل نوعين من التربية.. فان العقل يتأثر بها، إذ يتأثر العقل بالإرادة.

وانما العقدة التي يعاني منها الضالون، عقدة نفسية آتية من فقدهم الإرادة، التي تحررهم من الرواسب والمخاوف وتجعلهم يفكرون بصورة منطقية. فأول ما ينبغي معالجته فيهم؛ هذه الارادة الكسولة العاجزة، حتى تحررهم من الضغوط الخارجية التي تفرض عليهم نوعاً خاصاً من الافكار. وهنالك فقط يستضيئون بنور العقل الذي سيهديهم الى صراط الحق.

ويدعو القرآن العقدة النفسية التي تحول بين المرء والحقيقة، يدعوها بالهوى، فيقول منددأ بها:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص/٥٠)

﴿ وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ﴾ (محمد/١٦)

ففي الآية الاولى: جعل القرآن السبب الوحيد لرفض الكفار الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، انهم يتبعون اهواءهم، فعقدة الهوى هذه هي العقبة الوحيدة التي تحول بينهم وبين الايمان. ثم انهم كظالمين يحرمون أنفسهم من الهداية. وبذلك نعرف ان ارادة البشر دخيلة في عمله، ذلك ان الظلم عمل والعمل مرتبط بالمشيئة الحرة.

وتجعل الآية الثانية اتباع المنافقين لاهوائهم سبباً لتلبد شعورهم عن معرفة ما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي سماه الله

سبحانه بالطبع على القلوب، وانغلاقها الكامل عن الهوى.

وفي آيات كثيرة نجد اتّباع الآباء او البيئة الاجتماعية او الظروف الاقتصادية، سبباً قوياً للضلالة في الإنسان، ولكنها جميعاً اسباب ارادية خاضعة لمشيئة الانسان ذاته، الذي يدعوه القرآن مرة بعد اخرى الى تحرير نفسه عن ضغوط هذه العوامل المضادة للمعرفة الصادقة.

ز- هل يستضيء بالعقل من لا يريد ان يهتدي الى الحق؟ كلا. وهنا نكتشف العلاقة الوثيقة بين العقل وبين اتّباع الحق. فالعقل يهدي الى الحق، وحب الحق وارادة اتّباعه يدعوان الفرد الى العقل. ومن هنا تأتي ضرورة التسليم للحق، ورفض الاستكبار عليه!

وبمدى التسليم للحق، واتباع سبله، يرتبط قوة العقل في الإنسان، فكلما كان الفرد اكثر تجرداً عن سابقياته واكثر تحفزاً الى معرفة الحقيقة كلها ، كلما اقترب الى الواقع وكان اكثر عقلاً.

ان التسليم للحق يرتبط بثلاثة عوامل:

١- العامل النفسي الذي يتلخص في حب الحق والرغبة في معرفته ، والعلم بأنه الباقي، وانه المفيد، إذ بدون ذلك لا يسعى اليه الإنسان.

٢- الشك فيما عند الفرد من افكار والتردد في انه هو الحق، اذ بدونه يأخذ الإنسان غرور كبير بما لديه، فيترك البحث عن الحق.

٣- الثقة بقدرته على معرفة الحق، وبالتالي ثقته بعقله، فمن قنط عن بلوغ الحق خلد الى التقليد، ولم ير تشجيعاً على متابعة بحثه عن الحق. وكذلك التضاؤل امام فكر نابغة يدع الانسان عاجزاً عن متابعة بحوثه،

إذ يظنّ الفرد سلفاً انه عاجز عن بلوغ ما لم يبلغه النابغة، فهو مهما تعب فسوف يكون ما يحصل عليه اقل مما حصله النابغة من افكار، والنتيجة الطبيعية لذلك تقليد النابغة دون تجشم عناء البحث.

ح- وإذا كانت معرفة العقل وصفاته إنما تكون بالنظر "العبوري" فيما يكشفه لنا من حقائق، فكلما عددنا الصفات الحسنة التي يهدي اليها العقل، وكلما احصينا الحقائق العلمية التي توصلنا اليها بها ، كلما استيقظ العقل فينا وزدنا ثقة به، ووعياً لخفاياه، إذ يعود بنا ذلك الى ذات العقل، كما تعود بنا المرآة الى صورة الوجه.

ومن هنا كان لبيان الحقائق والمثل التي يكشفها العقل ويأمر بها اهمية كبيرة في معرفته، وبالتالي معرفة الأشياء به، والأحاديث المفسرة للقرآن الحكيم تواصل إيقاظ العقول عن طريق بيان هذه الحقائق، ففي الحديث (في بيان جنود العقل وجنود الجهل):

فأعطى العقل الخير وهو وزيره، وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل، والتصديق وضده الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضا وضده السخط، والشكر وضده الكفران ، والطمع وضده اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها القسوة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق، والعفة وضدها التهتك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة ، والتواضع وضده الكبر، والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم

وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنا وضده الفقر، والتذكر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة ، والقنوع وضده الحرص، والمواساة وضده المنع، والمودة وضدها العداوة.

ان هذه الصفات بعضها ينكشف بالعقل، فلينظر الإنسان إليها نظرة يعبر من خلالها الى الحقيقة الكاشفة لها وهي العقل.

وانطلاقاً من هذه البنود الثمانية نستطيع رسم المنهج القرآني للبحث العلمي الذي يوجز في الامور التالية:

١- على الباحث إثارة عقله، بطول النظر فيما يكشفه العقل من حقائق بديهية نظراً (عبرياً) يبصر من خلال الحقائق المضادة ، الى اشعة عقله المضيئة لها تماماً كما ينظر الإنسان الى المرآة ليرى من خلالها عينه الباصرة.

٢- على الباحث تحرير نفسه من الضغوط الخارجية والرواسب القديمة، ويستعد لاستقبال أية حقائق يتوصل اليها عقله بعده.

٣- وعليه ان يحب الحق، ويسلم عنان نفسه لقيادته، وان يشك فيما هو فيه، شكاً نقياً من كل شوائب الغرور الذاتي ، وان يثق تماماً بقدرته على معرفة الحق، قدرة مطلقة.

٤- وعلى الباحث - اخيراً- التركيز في نقطة بحثه، دون التأثر بالشرود الذهني الآتي من قبل الشهوة حيناً والغضب حيناً آخر.

العقل موهبة

١- ومن بين الحقائق التي سوف تنكشف امامنا بالنظر في العقل من خلال آياته، هي حقيقة الموهبة في العقل؛ التي نعرف بها ان ضوء العقل لم يكن لدينا ثم فجأة وبدون أي نوع من الاكتساب الذاتي حصلنا عليه، ونفقده حيناً لا نزال نصبو إليه، فترانا نريد ان نتذكر شيئاً فننساه، ونريد ان نعرف شيئاً وقد يكون شيئاً بسيطاً فنجهله، هنالك نعلم ان تدبير العقل بيد غيرنا وهو الله سبحانه.

لو كانت موهبة العقل من ذات انفسنا، إذاً ما فقدناها لحظة، وهل يفقد الشيء ذاته؟ ولما كان محدوداً ابداً، إذ المحدود نوع من الفقد الذاتي، ولما عصت علينا حينما اردناها، افتعصي الذات على الذات؟

ان ذات الادلة التي اهتدينا بها الى ذاتية العدم فينا وبالتالي عرفنا ان الوجود لا يعدو ان يكون نوراً عارضاً على الاشياء، ولا يعدو ان يكون هبة من خالقه، اقول ان ذات الأدلة تأتي هنا لتهدينا مرة اخرى الى ان

العقل ايضاً موهبة ، بما فينا من قدر خاص منه، وانه لا يخضع تماماً لإراداتنا رغم انه يخضع نوعاً ما لها.

٢- وحين جهل البشر حقيقة "الموهبة" في العقل، راح يتطرف يمنة وشمالاً؛ ففريق حسب العقل من ذات الانسان، فلم يتصور نفساً جاهلة واخرى عاقلة، بل العقل والعلم من ذات النفس (التي سماها: روحاً علوية مقدسة عن كل نقص) وقال هذا الفريق: ان النفس البشرية تتطور بصورة آلية حتى تكتمل فلا تجهل شيئاً ، ومنهم من قال: إن النفس كانت تعرف كل الحقائق فنسيتها ثم تتذكر ايضاً.

وفريق زعم العقل مجرد عارض على الإنسان الذي يملك فقط اداة استقباله، فالعلم مجرد تجارب، والتجارب احاسيس وهي امور مادية صرفة.

فلم يتصور الفريق الثاني نفساً تملك رصيداً داخلياً يفترق عن الحيوان، ويبني به حضارة سامية.

وهؤلاء الحسيّون انكروا وجود مقاييس ثابتة يملكها البشر بعيداً عن التجربة ليقيس بها تجاربه فيميز الصحيح منها عن الخطأ .

وبين هذين المتطرفين؛ كان موقف القرآن الحكيم الذي قال:
﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى﴾ (الضحى/٧)

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ﴾ (الانعام/٧٧)

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ (القصص/٥٦)

إن الهداية التي هي وصـول اكبر الحقـائق الكونيـة واوضحهـا، إن لم تتحقق بغير الله، فان غيرها احرى الا تكون سوى نعمة من اللـه العزيز.

٣- وبما ان العقل موهبة ، فانه مفقود من الصبا، ولكنه يُبعـث فجأة في الانسان حينما يبلغ سن الرشد، قال الله :﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَـغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ (الاحقاف/١٥)

وهنالـك يشعر بضوء باهر يغمر فؤاده، ليهديه الى :

أ- الحكمة.

ب- العلم.

فالحكمة تبين له الخير والشر، وتعرّفه الفضيلة والرذيلة، وتدعوه الى الصلاح والسعادة. ان الحكمة هي السبيل الذي هدى اللـه اليه الإنسـان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان/٣)

وهي تُلهم الإنسان فجوره وتقواه، الـذي قـال عنـه اللـه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس/٧-١٠)

والحكمة -أخيراً- هي القيمة النهائية التي نحتكم إليها في تقييم اعمال الشعوب والدول ، والتي نجدها واحدة في كل مكان، لا اقل نظرياً.

فالصدق والوفاء والصراحة هي الفضائل التي تدعو اليها حكمة العقل في كل مكان وزمان، والكذب والغـدر والالتـواء هـي الصفات الـتي تنهى عنها حكمة العقل، انى كانت ومتى وجدت.

ومن الحكمة تأتي النفس اللوامة التي توبخ الانسان كلما اقترف اثماً

ولو بعد حين من عمله، وذلك مثل ان يفقد الفرد اعصابه امام شهوة عارمة فيجترح الفاحشة، او امام غضبه فيرتكب الجريمة .. ثم يعود اليه رشده فيأخذ بملامة نفسة من سوء ما عمله! وجاء ذكر النفس اللوامة في القرآن في الآية التالية، فقال تعالى:

﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة/١-٢)

والحكمة هي العقل العملي الذي يقوم حجة بين الناس وحجة من الله على الناس، وهو الرسول الباطن الذي يحتكم اليه اهل الشرائع السماوية بعد انبيائهم، والذي جاءت الشرائع مذكرة به، ومنبهة له ومثيرة لدفائنه وخباياه.

واتبع القرآن الحكيم وسيلة التذكير لايقاظ هذا العقل في الإنسان ليجعل منه -دون الخرافات- مقياساً في افكاره واعماله. وفي الحديث التالي الماثور عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام دراسة وافية للهدف والوسيلة اللذين مارسهما القرآن في إثارة العقل العملي، ودعوة الإنسان اليه:

قال الامام الكاظم - مخاطباً احد اصحابه-: يا هشام؛ ان الله بشر اهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر/١٧-١٨)

يا هشام؛ ان الله تعالى اكمل على الناس الحجج بالعقول ونصر النبيين بالبيان، ودلهم على ربوبيته بالإله فقال: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ

فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/١٦٣-١٦٤)

يا هشام؛ قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بان له مدبراً ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل/١٢)

يا هشام؛ ثم وعظ اهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الانعام/٣٢)

ثم خوف الذين لا يعقلون عقابه فقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الأَخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات/١٣٦-١٣٨)

يا هشام؛ ثم بيّن ان العقل مع العلم فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت/٤٣)

يا هشام؛ ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَيَهْتَدُونَ﴾ (البقرة/١٧٠)

ثم ذم الكثرة فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ (الانعام/١١٦)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان/٢٥)

قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَيَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت/٦٣)

يا هشام، ثم مدح القلة فقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ/١٣)

وقال : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَونَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ (غافر/٢٨)

يا هشام، ثم ذكر اولي الألباب بأحسن الذكر وحلاّهم بأحسن الحلية فقال: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة/٢٦٩)

وقال: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران/٧)

يا هشام، ان الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (ق/٣٧) يعني العقل. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ (لقمان/١٢) قال: الفهم والعقل.

يا هشام، إن لقمان قال لابنه: تواضع تكن اعقل الناس، يابني ان الدين بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر.

يا هشام، إن لكل شيء دليلا ودليل العقل التفكر ودليل التفكر الصبر، ولكل شيء مطية، ومطية العقل التواضع، كفى بك جهلاً ان تركب ما نهيت عنه.

يا هشام، ما بعث الله انبياءه ورسله الى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فاحسنهم استجابة احسنهم معرفة، واعلمهم بأمر الله احسنهم عقلاً،

واكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخـرة.

يا هشام؛ ان على الناس حجتــين؛ حجـة ظـاهرة وحجـة باطنـة ، فأمـا الظاهرة فالرسل والانبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة العقول.

إن هذه الدراسة العميقـة لفلسـفة واسـلوب القـرآن في معرفـة العقـل ونوعية إيقاظــه في القلـوب، ابتـدأت بذكـر الآيـات القرآنيـة حسـب المنهج التربوي الذي اتبعته الآيات في إثارة العقول وإيقاظها.

فإذا كانت التربية العقلية مرتبطة بالرغبة والرهبة، ذلك أن الإنسان لا يعمل شيئاً إلا إذا وجد فيه فائدة عائدة إليه، عاجلاً او آجلاً، لذلك بــدأ الحديث عن آية البشارة التي قررت الهدايـة لأولي الألبـاب ويشـرهم خيراً.

والاسلوب القرآني يذكّر الفرد بالآيات الظاهرة ثم يتدرّج به الى معرفة الحقائق التي وراءها، كذلك كانت الآية الثانيـة والثالثـة تذكـرة بـاعظم آيات اللـه، ثم اثارة للعقل عن طريقها بـالقول لآيـات لقـوم يعقلـون(١) ذلك أن من يهتدي الى اللـه بهذه الآيــات يعرف انه لولا وجود العقـل لديه لم يكن يقدر على معرفة الربط بين اللـه وبين آياته العظيمة.

وإذا كانت الدنيا الحاجز الضخم بين الإنسان وبـين عقلـه لانـه يحبـذ للإنسان المغانم العاجلة وينسيه الحياة الآخرة ، وجب ازالة هذا الحـاجز حتى يستطيع الفرد ان يبلغ الحق بعقله. ومن هنا جاءت الآيتــان الرابعـة

---

(١) يراجع حديثنا حـول نوعيـة اثارة العقـل بمـا يكشـفه، وهنـا ابتـدأ بذكـر البديهات التي يكشف عنها العقل ثم ذكر انها لم تكن واضحة بدون العقل.

والخامسة لكـي ترغـب النـاس في الآخـرة وتنذرهـم مـن الدنيـا. ثـم ذكّرت الآيتان بالعقل، فقالتا: افلا تعقلون؟ افلا تعقلون؟

وجاء بيان ربط العقل بالعلم في الآية السادسة محفزاً آخر نحو التفكر المنطقي.

الا ان حاجزاً آخر يبقى ابداً مانعاً بين الإنسان وبين التعقل، ذلك هـو اتباع الآباء الضالين، فجاءت الآية السابعة تذم الذين يتركون عقولهـم ضحية خرافات الآباء، وذكّرهم مرة اخرى بان لديهم عقولاً لـو رجعـوا اليها لاهتدوا الى سواء السبيل .

ويبقى بعد حب الدنيا وحب الآباء حاجز ثالث بـين الإنسـان وعقلـه، هو ضغط الجماعة، فجاءت الآيـات الثامنـة الى الثالثـة عشـرة لاعطـاء المنعة دون هذا الضغط، وجاءت ثلاث آيـات في ذم الكـثرة وثـلاث في مدح القلة، ليعرف العاقل ان خروجه عن المجتمع الجاهل خير من خروجه عن قائمة العقلاء.

والعقل يزيد بالتوعية الذاتية التي تدعى بالتذكر. فما دام ايقـاظ العقـل لايكون إلاّ باثارته لان معرفتـه لاتكـون إلاّ بذاتـه، فـان التذكـرة هـي السمة المائزة للعقل.

والآيتان الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، تدعوان الانسان الى التذكـر، بعد ان تذكران مثلين له، فـالتذكر يتجسـد في عمـل الخـير والتسـليم للحق، وهما مفادا الآيتين تماماً.

ولكن من اين نعرف من القرآن ان التذكر خاص بذوي العقول، وان

كلمة "وما يذكر الا اولو الالباب" تهدي الى التوعية الذاتية للعقل؟

الجواب نجده في الآية السادسة عشرة: ففيها قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ والقلب في القرآن هو العقل.

وفي الآية السابعة عشرة نجد الحكمة قد فُسِّرت بالفهم والعقل، وهي بالضبط مفهوم الآية السابقة التي نجد فيها قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

فإذا كانت الحكمة هي العقل، فالتذكر في الآية يعني إثارة العقل. ومن هنا نعرف ان طريق معرفة العقل هو التذكر. ان هذه الدراسة العميقة لنوعية المنهج القرآني في تربية العقل، تسير على ذات القواعد التي سبق القول فيها. انها هي النظرة القرآنية الى العقل. وهي تربي حكمة العقل في الإنسان وتعطيه قوة التفكير المنطقي.

وتلخص الدراسة بعد ذكر الآيات - تلخص نظرة القرآن الى العقل ومنهجه في ايقاظه في ان التسليم للحق هو الخطوة الاولى للعقل (١) من هنا نقل الامام عن لقمان قوله : تواضع للحق تكن اعقل الناس، ثم علل لقمان ذلك بان الشقاء ينتظر كل من لا عقل له.. إذ ان سفينته ستغرق في بحر الدنيا العميقة.

ثم ربط الامام العقل بالتفكر، والتفكر بالصمت، إذ ان التذكر منهج

---

(١) سبق الحديث حول ذلك حينما ذكرنا ان الرغبة في الحق شرط مسبق للتوجيه الى العقل لان العقل دليل الحق، فإذا عاف الفرد الحق فلماذا يرجع الى العقل؟

ذاتي لزيادة العقل واتساع مداه.

وبعد ان ذكر اهمية العقل عاد ليذكرنا بـان العقـول هـي حجـج اللـه الباطنة على الناس، ولم يبعث اللـه انبياءه ورسـله إلا لكـي يعقلـوا عـن اللـه، وفي الجزء الذي لم نذكره من الدراسة يستمر الامام في توضيـح نظرة القرآن ومنهجه في العقل.

خلاصة القول: ان حكمة العقل، هي القيم التي نجعلها نحن ابنـاء آدم مقاييس في اعمالنا وحججاً في خصوماتنا، وهـي بالتالي حجـج اللـه التي بعث الانبياء من اجل تنقيتها وبلورتها في النفوس.

العلم وموهبة العقل

١- قلنا العقل موهبة. وهو نوعان؛ حكمة وعلم، وفصلنا القول عن الحكمة وما هي وما هو المنهج القرآني المتبع في سبيل بلورتها في النفوس. بقي علينا معرفة الجانب الثاني من موهبة العقل وهو الجانب العلمي.

وتتلخص نظرة القرآن فيه ان للانسان مقاييس علمية ، يستطيع بها معرفة الاشياء. هذه المقاييس غير مكتسبة، بل انها مواهب مقدرة رغم انها خاضعة لمشيئة الانسان كأية موهبة اخرى فيه، فالعين خاضعة لمشيئتك ولكنها في اصلها موهبة إلهية عليك. وقد يزيد العقل بالعمل إلاّ ان ذاته موهبة.

وتهدينا الى ان العقل موهبة وليس بمكتسب:

اولاً: فطرة كل فرد منا إذ نحن حين نعلم شيئاً نستطيع ان نعرف سبب علمنا به، فمثلاً حين نعلم بوجود مكة المكرمة ، نعرف ان علمنا بها آت

من رؤيتنا او من اخبار احد بوجودها وما اشبه.. ولما نفتش عن اصل معرفة المقاييس العقلية نجد اننا نعرفها بصورة ذاتية ودون ان يكون لمعرفتها سبب خارجي ابداً . فمثلاً حين نريد ان نعلل علمنا بامتناع التناقض فنقول: ان التناقض مستحيل لأننا رأيناه، أم لان شخصاً قال لنا ذلك، ام لان ادلة علمية قامت على امتناعه، لا نجد أي واحد من هذه الفروض صحيحاً، بل نجد ان طبيعة هذا الكشف لا تحتاج الى دليل من الخارج، او بتعبير آخر لا يرتاب إنسان في مقاييسه العقلية، ولا يحتاج في كشفها الى اية حجة خارجية، وهذا افضل برهان على انها ذاتية.

ثانياً: لولا وجود المقاييس العقلية لانهار بناء العلم دفعة واحدة، إذ يعتمد العلم على تفسير الظاهرة بقاعدة عامة، فالعلم يقول: ان الضغط يولد الانفجار، ويكشف لنا عن اسباب انفجارات معينة بانها ضغوط قاسية.

حسناً؛ كيف استطعنا معرفة ان كل ضغط يولد الانفجار، ولم نلاحظ إلا بعض اقسام الضغط وبعض افراده فقط؟ وكيف جزمنا بان هذا الانفجار تولد من الضغط؟ اليس لاننا حين شاهدنا الف ضغط وفي ظروف مختلفة سبب كل منها الانفجار، عرفنا بمقاييسنا العقلية ان اية ضغوط مشابهة لما شاهدنا تولد الانفجار ايضاً. ولولا هذه المقاييس اذاً لم نقدر على الجزم بسبب أي انفجار، بل لم نكن نعرف ان للانفجار سبباً ما إذ وجود السبب ذاته -خاضع لمقاييس العقل الذي يقول ان لكل شيء سبباً ونتيجة.

فالنتيجة : ان قوة ايماننا بمعارفنا تدعنا نؤمن بعقولنا ايماناً قوياً لانها

هي اصل كل معرفة لدينا.

ثالثاً: ولولا هذه المقاييس العقلية، لم نستطع الايمان بصدق الاحساس، دعنا نفكر قليلاً: اننا نؤمن بصدق ابصارنا فيما نرى، وهنالك افتراض بكذب هذا الاحساس (كما يزعم فريق من الفلاسفة الذين يسمون بالمثاليين) فكيف يمكننا التثبت من صدق الاحساس وكذب هذا الافتراض، إنما المقاييس العقلية حجة قوية لذلك. الاحساس في حقيقته عارض جديد ولابد ان يكون، فما وراء الاحساس ايضاً صحيح. اما لو نفينا صدق هذه المقاييس فلا يمكننا الا ان ننفي ايضاً احاسيسنا جملة واحدة.

٢- العقل يكشف عن الاشياء، ومن طبيعة كشفه الوضوح والاطمئنان والثبات في كل حال وزمان وعند كل احد وفي كل مكان، فمادام العقل يشاهد الاشياء حتى يباشر النفس حقائق الامور مباشرة فعلية وجب ان تطمئن النفس الى وضوحها ولا ترتاب بها، والا يختلف عند أي فرد ولا في أي حال.

ان هذه الحقيقة تعطينا فرصة كافية لاختبار معلوماتنا عن طريق النظر اليها؛ هل تنطبق عليها صفات العلم الحقيقية التالية:

اولاً: الوضوح

فما دامت الفكرة غير واضحة عند النفس يجب ان لا تنسب الى العلم، ولا يجوز لنا ان نتخيل وضوح شيء مادامت النفس هي بذاتها لم تستطع الجزم بها.

ثانياً: الاطمئنان

فما دامت النفس لا تجد برد اليقين إزاء الفكرة فلا يمكـن ان تطلق عليها صفة العلم. ذلك ان على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً يجذب النفس الصافية فتطمئن اليها.

قال اللـه سبحانه وهو يصف الضالين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِيـنَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة/٤٥)

﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَـن ذِكْرِنَـا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْرُهُ فُرُطـاً﴾ (الكهف/٢٨)

وصفتا التردد والفرطية تلازمان الجهل ابداً.

ثالثاً: الثبات

إذا كانت الشمس طالعة يوم كذا في بلد كذا، وعرفت ذلك بصـورة واضحة، فلابد ان يعرفها كل فرد وفي كل مكان وفي كـل حال، امـا اذا كان بخلاف ذلك فلا يمكن ان يكون "علم" الجميع صحيحاً. مـن هذه النقطة تبدأ المقارنات العقلية التي تجريها النفس امام كل احساس لتميز الصحيح منه عن البـاطل، فمثـلاً يحس المريـض بـدوار فيرى الاشيـاء في حركـة، ولكنه سرعان مايقـارن بـين رؤيتـه وبـين سـائر الاحاسيس، فيقول: لو كنت غير مريض ولو كانت يدي ايضاً تلمـس حركة الاشيـاء، إذاً كـانت الحركـة صحيحـة، امـا الآن فـلا، إذ العلـم يجب ان يكون ثابتـاً بالنسبة الى كل احساس بل الى كل الاحاسيس.

وهكذا من يضع يديه في ماء فاتر بعد ان كانت احداهما في ماء حار

والثانية في ماء بارد فيحسس بالاولى ان الماء الفاتر بارد وبالثانية انه حار، وحينما يقارن بين اليدين ويعلم ان الماء الواحد لا يمكن ان يكون حاراً وبارداً في آن واحد، ويقارن الاحساس بالحالة السابقة يتوضح له انما الماء فاتر.

وكذلك ترى العين العصا بانكسار حينما توضع في الماء، ولكن حين يخرجها الانسان يراها معتدلة، او حينما تلمسها اليد يجدها مستقيمة ، فيقارن العقل بمقاييسه بعض الاحاسيس ببعض ويحكم ان العصا مستقيمة وان العين هي القاصرة.

ويشعر الجسم بقشعريرة البرد فيزعم الفرد ان الطقس شديد البرد، إلا انه حين يقارن بين هذا الشعور وبين الشعور بالزكام الشديد او يقارن بين شعوره بالبرد وعدم شعور من هم مثله من الناس به، يعرف ان الطقس ليس ببارد.

وترى العين شخصاً قزماً من بعيد ويسمع صوته ضعيفاً، ولكن المقياس العقلي يفرض عليه اعتباره رجلاً طويلاً ذا صوت عال، حيث يقارن بين احساسه بنظر الشخص البعيد ومقاله، وبين رؤيته لسائر الاشياء البعيدة، فحين يقدر المسافة؛ يعرف مدى صحة رؤيته وسماعه.

ولو تفكرنا قليلاً لوجدنا الإنسان لم يتوصل الى حضارته ولا الى أي كشف علمي بدون هذه المقارنات التي تعتمد على المقياس الفعلي الذي يكشف بسرعة زيف الاحساس عن حقه، فمثلاً وجد ابن الهيثم -وهو رياضي اسلامي قديم- تعليلاً لكسر الاشعاعات عندما تمر خلال

وسيط مثل الهواء او الماء، واعتماداً على هذه الظواهر وتلك الحقائق استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الارضية وانها خمسة عشر كيلو متراً. (١)

كيف استطاع ابن الهيثم معرفة الكثافة الحقيقية للهواء المحيط بنا؟ يبساطة استطاع معرفتها بواسطة المقارنة بين انكسار شعاع الشمس في الهواء، وقال: لو كانت معرفتي بانكسار الاشعاع في انبوبة هواء صحيحة فلابد ان تكون صحيحة في فضاء هواء، إذ العلم من خصائصه الثبوت في كل مكان وكل زمان إذا كان الموضوع واحداً.

واننا قد نعتقد فكرة ونزعم اننا نعلم بها حقاً، ولكن بمجرد ما نقيس هذه الفكرة بما يماثلها في حجم الادلة القائمة عليها، او تتجرد عن الظروف الذاتية التي تحيط بهذه الفكرة، نراها تتبخر في الهواء، مما يدل على اهمية المقارنة بالمقاييس العقلية في كل جوانب حياتنا الخاصة.

والآن دعنا نفترض ان الإنسان لا يملك هذه المقاييس، فهل يستطيع ان يؤمن بشيء، بل هل يستطيع ان يتثبت من بعض احاسيسه بل كلها؟ باي شيء كان يهتدي الى ضرورة الاحساس والى صحته. والى مقارنته والى البحث عما يماثله . هكذا يكون العقل.

---

(١) القومية والغزو الفكري، ص١٢٥.

الانسان: طبيعة وعقل وإرادة

معرفة الانسان بداية سلسلة من المعارف الحضارية، فمعرفة نزعات الانسان وطاقاته الفكرية تشكل موضوع علم النفس، وإذا لاحظنا كل ذلك مرتبطاً بمدى نشاطاته من اجل اشباعها، كان موضوع علم الاقتصاد ، وحين تتحدث عن مجموعة افراد -نزعاتهم وطاقاتهم- يكون من اختصاص علم الاجتماع، واما علم التاريخ فهو مجموع هذه العلوم حينما نبحث عن اناس مضوا.

صحيح ان كل علم من هذه العلوم يتميز بمقاييس ومواضيع لا نجدها في غيره، الا ان خطه الفلسفي العام مشترك مع سائر العلوم، حتى انك تحتار حينما تحاول فصل البعض عن الآخر لشدة التشابك بينها.

ونظرة القرآن الى الإنسان نابعة من نظرته العامة حول الحياة وهي:

١- ان للإنسان جوانب إيجابية واخرى سلبية، والجوانب الإيجابية موهوبة له من الله القدير، بينما الجوانب السلبية ذاتية له لا يمكن

تعليلهـا بشـيء.

وتبدو هذه الحقيقة اشد وضوحاً لو تبصرنا واقع الكون على انه حدود ووجود. وان حدوده (التي تميزه عما سواه وتدعى في منطق الفلاسـفة بالماهية) حدوده هذه تابعة من ذاته، واما وجوده فمن اللـه، الذي يستمد نور الوجود منه القيمومة والحياة.

فالإنسان كذلك يملك جانب التحديد، وجانب الوجود. وجانب التحديـد نابع من ذاته بينما جانب الوجود قائم باللـه مستمد منه الحول والقوة.

فلكل فرد قدر من العلم والقدرة والارادة، وفيه الى جانب ذلـك قـدر اكبر من الجهل، والعجـز والانقيـاد، وبامتزاج العلـم والجهـل والقـدرة والعجز والارادة والانقياد تتكون الصفات المـائزة للإنسان، فهـذا يعلـم النحو ويجهل الفقه، ويقدر على البناء ولا يقدر علـى الصياغـة، ويقـاوم ضغط الشهوة ولا يقاوم ضغط الغضب! وهكذا فهو إنسان يتمـيز عمـن يعلم الفقه ويجهل النحو، ويستطيع الصياغة ويعجز عـن البنـاء، ويقـاوم بارادته الغضب وينقاد للشهوة.

فهذه حدود الإنسانية المتمايزة ، وذلك وجودها المشترك.

والحدود ذاتية لانه ما من فرد إلا ولم يكن في حين من الدهـر شيئاً مذكوراً ثم شيئاً بعد شيء امتلك بعـض القـدرات، بفضـل اللـه الحـي القيوم.

٢- والانسان يسير مسيرة شاقة نحو الجوانب الإيجابية، ومن الجوانب السلبية، وكل القيم الموحى بها إليه وقود لهذه المسيرة إن في جانبهـا

الفردي او المجموعي، وقافلة الحضارة تتابع ذات المسيرة الشاقة الطويلة، حتى تنتصر في العاقبة ببلوغ النهاية الحميدة التي تتمثل في تفوق الجوانب الايجابية على الجوانب السلبية في البشرية جمعاء.

٣- وهكذا يكون الاعتراف بواقع الثنائية في الإنسان، البداية الطبيعية لعلم النفس، اما علم الاخلاق فهو الأضواء المشعة التي تكشف جوانب هذه الثنائية ، وتحاول وضع معالم في سبيل الفرد نحو التفوق ضد الجوانب السلبية. وعلم الاجتماع اعتراف بواقع الثنائية في الإنسانية ، وكشف لخطوط السلبيات فالايجابيات فيها، ووضع مشاعل على طريق انتصار الخطوط الايجابية على السلبية، والتاريخ علم يتابع - بعد الاعتراف بكل هذه الحقائق - مسيرة الانسانية في الاحقاب المتطاولة نحو انتصار جوانب الكمال، وعبرة مستفادة من الماضي للمستقبل.

وهكذا يتحول كل علم - من العلوم الإنسانية الأولية- الى جانبين: جانب الكشف وجانب التوجيه. ورغم ان جانب الكشف هو قاعدة الجانب الثاني، فإن هذا الأخير ايضاً هدف الجانب الأول الذي ينشأ من تناسيه الفوضى في مسيرة (علم معرفة الإنسان).

علم النفس في القرآن

وجانب الكشف من علم النفس في فلسفة القرآن يتبع القواعد التالية، التي ليست سوى تبسيطاً لذات الحقيقة الآنفة الذكر:

١- ليست النفس سبيكة بيضاء، ولا صخرة سوداء، كما زعم كل ذلك فريقان متطرفان من فلاسفة البشر، وانما هي امر بين امرين.

٢- ومن هنا فان الجوانب السلبية والايجابية متعايشتان عند الإنسان لا يفرضهما عليه فارض من خارجه، اللهم الا الله واهب الخير له ويفرض عليه كلمة التقوى احياناً.

٣- وخطأ فلاسفة البشر الاول آت من افتراضهم سلفاً ان النفس التي تتبع الخير لا يمكن ان تكون مصدر الشر، وكذلك العكس، جاهلين ان طبيعة النفس الشريرة لا تنافي هبة الله لها موهبة خيرة. كما كانت طبيعة الإنسان الموت فوهب الله له الحياة، وذاته العدم، فاعطاه الله الخلق والوجود وهكذا.

٤- ومن هنا تكون المحفزات الطبيعية حقة وواقعية بذات القوة التي تكون العوامل الحضارية صحيحة وواقعية، فالعصبية الى جانب الايثار، والشهوة الى جانب التعفف، والرياء الى جانب الاخلاص امور واقعية ومعترف بها.

٥- وتكون التربية والاخلاق والعقوبات والضغوط كلها ضرورية، لأنها ستساعد الجانب الايجابي في البشر على الجانب السلبي، ولكن بعد الاعتراف بواقعية الحالة الاعتدائية في النفس واثر الوراثة والهوى والكفاح المعاشي في تسييره، مما يشكل الجانب السلبي منه.

هذه هي النقاط الخمس التي تعود لتتمركز في ثورة فكرية واحدة هي قاعدة الثنائية في الكائنات وفي النفس البشرية، هذه القاعدة التي اخطأها فلاسفة البشر قديماً وحديثاً، وهدى اليها القرآن الحكيم الذي قال:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (الشمس/٧-١٤)

النفس تعرف الفجور وتعرف كيف تبقى فيها وتتخلص من سيئاتها، ولكنها تسير ناحية التزكية حيناً وناحية الدس والنفاق حيناً، واي الناحيتين سارت فهي نابعة من قوة متأصلة فيها، فعشيرة ثمود حيث اختارت الضلالة فانما اختارتها بطغواها؛ انها طغت بالنعم، والطغيان بالنعم حقيقة معترف بها لدى الاسلام وسنة اجتماعية، ولكن القرآن من جانب

آخر يدين ثمود، لانها كانت تستطيع الافلات من قيود هذه السنة الاجتماعية وتستجيب لنداء رسولها فلم تفلح، فعوقبت ودمدم عليهم ربهم فسواها. والعقوبة ذاتها نابعة من التخيير في الاسلام، فلولا اعتقادنا بامكانية ثمود التمرد على سنن الكون لما حسنت العقوبة ولا حتى الادانة.

وبعيداً عن تفسير الظواهر النفسية بالثنائية(الذات + الموهبة) تتورط في الفلسفات التجزيئية التي لم تستطع ان تعطي الإنسان وجوده المتكامل، واكثرها تجرد الإنسان من حريته في اختيار السلوك الفاضل.

أ- فداروين يجعل مسألة التقدم البشري طبيعية الى درجة بعيدة، ويجعل الكفاح من اجل الوجود وسيلة الإنسان الوحيدة نحو التقدم الطبيعي، ثم يربط بين الشرور وبين مرحلة الإنسان، بحيث يكاد يقدس تلك الشرور ويعكس نظرية الخطيئة الاولى في الديانة المسيحية، ولا نذيع سراً لو قلنا ان بناء العلوم الحديثة (والمرتبطة بمعرفة الإنسان) قد قام على نظرية داروين ليس في اصالة الشر في طبيعة الإنسان فقط، بل وأيضاً في جعل الكفاح من اجل الوجود الوسيلة الوحيدة لرقي الإنسان.

ب- وفرويد، يجعل الصفة الاعتدائية طبيعية في الإنسان متجاهلاً تماماً صفة الرحمة فيه، بل يتطرف بالقول: إن اعاقة الاعتدائية على العموم شيء غير صحي.

ج- وتطرف فريق ذات اليمين، فلم يرَ في الإنسان أي شر اصيل، وقال: ان الطبيعة الانسانية غير مصابة باية خطيئة اصلية غير الخطيئة

الاصلية التي ارتكبها المجتمع ضدها. ومثّل هذه النظرية: روسو وكانت وغوته وآخرون.

وكانت من نتائج اصالة الخطيئة دون الفضيلة؛ اليأس من اصلاح الإنسان، بل وتبديل القيم الى حد الزعم بان الرذيلة نوع من الفضيلة، اما النظرية المعاكسة فكان من نتائجها تحميل التربية كل اخطاء الإنسان وتناسي العوامل المضادة في ذات البشر وبالتالي عدم الواقعية في ذات البشر.

إن الانسان حسب نظرية الاسلام ليس مخيراً بالمرة، فهنالك الوراثة والتربية بل عامل الكفاح من اجل الحياة ، تفرض عليه احياناً اتجاهاً محدداً، الا انه من جانب آخر ليس مسيّراً بالمرة فهنالك عامل العقل الذي يسمو به احياناً اخرى الى الثورة ضد عوامل الفساد، والعقل هذا موهبة يتأصل في ذات الإنسان الى كائن حضاري لا جبر فيه ولا تفويض بل امر بين امرين.

الاخلاق في القرآن

يبقى الجانب التوجيهي من فلسفة القرآن في علم النفس. وفي هذا الجانب يذكرنا القرآن مرة اخرى بالثنائية في الكائنات، فمن حيث ذاتها الأصلية تحدد بالعدم والعجز والجهل، ومن ناحية المواهب والعطايا الإلهية تتمتع بالوجود، والقدرة والمعرفة، وحين تنعكس هذه الحقيقة الكبرى على صعيد النفس وتهبط الى مستوى التوجيه، نرى الاخلاق الفاضلة تتمثل في الشخصية التي تعكس حقيقة النفي والاثبات في الكائنات وتعمل بوحي هذه الحقيقة.

والتعبير الدقيق عن هذه الحقيقة في النفس هو العمل وفق محور اليأس والرجاء؛ اليأس من كل شيء على انه موجود ناقص عاجز جاهل بالذات، وانه لا يملك نفعاً ولا ضراً، والرجاء بالله (الذي لا يشبه خلقه في شيء من ذلك والذي يملك كل شيء) واليأس من القوى الموجودة في كف الإنسان فعلاً، والرجاء فيما قد يبلغه هذا الإنسان

بالذات في المستقبل.

ومحور اليأس والرجاء بمعناه العام يصنع الشخصية القرآنية التي تتمتع بالاعتدال في السلوك والاستقامة في الرأي؛ لانه - وكما سبق- يعكس حقيقة الكون بصورة دقيقة، فلا يغرّ بما يملك، ولا يتوانى عما يطمع، ويأسه عن المخلوق يعطيه مناعة عنه، ورجاؤه في الخالق يزيده عملاً له، يؤمن بما يملك؛ لان كل ما يملك من الله، ولكنه من جانب آخر لايبطر بما يملك، إذ يعلم انه امانة في يديه من غيره، وهكذا لا تعجزه المصائب ولا تكسر عزيمته الفوادح؛ لانه يملك رجاءً قوياً بالله.

فلسفة المجتمع في القرآن

والجانب الفلسفي من نظرة الاسلام الى المجتمع نابع كذلك من الإيمان بان الانسان كائن محدود المعطيات وانه يملك خط السلبيات وخط الايجابيات، وعلينا حين نلاحظ المجتمع، التفتيش عن تفرعات حقائق الخطين. والقواعد الاساسية لفلسفة المجتمع في القرآن تتأطر ضمن نقاط:

١- دراسة علم النفس اساسية في معرفة المجتمع، فكل شيء نجد مصغره في الفرد، نجده في المجتمع بصورة متجسدة؛ تشابك الخير والشر في نفس كل انسان يعكس ظاهرة تشابك الاخيار والاشرار في المجتمع. وذات القوانين التي تحكم طبيعة التشابك على صعيد النفس ذاتها تحكم التشابك على صعيد الجماعة.

٢- وبناءً على ذلك؛ فاننا لا نستطيع ارجاع كل الظواهر الاجتماعية الى الجانب السلبي من الانسان حتى نجد انفسنا في حلقة مفرغة لا

نعرف من اين تبدأ المؤثرات، بل يجب ان نبحث عن خطي السلبية والايجابية معاً؛ فمثلاً في موضوع اساس المجتمع، لا نستطيع ان نجعله الحاجة وضرورة العيش فقط، (وهو - طبعاً- اساس تقتضيه الغريزة الانسانية) بل لابد ان ندخل في حسابنا الحب البرئ الذي يتمتع به كل فرد إزاء ولده ووالديه وأقاربه فمجتمعه.

وليس من الصائب ان نجعل اكتشاف الحديد واستسلام الانسان له، سبباً لطور جديد من المجتمعات، خاضعة للزراعة والصبر والعمل، بل لابد ان نلاحظ ايضاً، حالة الصبر والعمل الذي سبق اكتشاف الحديد، وكان جانباً ايجابياً من الانسان وغير متأثر بالظروف المادية.

كذلك لا نجعل العصبية اساس الملك، ونربط العصبية بالقبلية فالعنصرية فالاقليمية، ثم التيار القومي والحضاري (كما جعله ابن خلدون وتابعوه) بل نلاحظ الى جانب هذا الخط السلبي في تسيير المجتمعات خطوطاً ايجابية ابتدأت من الفكرة الحضارية وطليعة المبشرين بها، والامة وتموجاتها في العالم و..و.. مما هو جانب ايجابي بنّاء في حياة الانسان.

٣- وبالتالي في تقييم دور الفرد في تسيير المجتمع ، او تسييره بالمجتمع لابد ان نقدر ليس فقط حاجات الفرد المادية، والتي ترتبط بصورة اخرى بالمجتمع وضغوطه، بل وايضاً تطلعاته الاصلاحية المبدعة، ومدى "ارادته" في فرض هذه التطلعات على التيار الاجتماعي، وهكذا يجب رسم خط بياني كالتالي في معرفة التأثير المتقابل في المجتمع.

في تأثر الفرد بالمجتمع نقول:

الفرد = نسبة ضغطه + نسبة ضعف مقاومة المجتمع له= نسبة التأثير.

وبالعكس نقول:

المجتمع= نسبة ضغطه + نسبة ضعف ارادة الفرد = نسبة التأثير.

٤- وقد يكون تيار الاجتماع خاطئاً كما قد يكون الفرد خاطئاً، ولكن لن تكون القوانين التي لابد من تسليم التيارات الاجتماعية لها، لن تكون خاطئة ابداً.

بمعنى ان أي فعل اجتماعي سليم، ينطوي على مردود سليم وأي فعل اجتماعي خاطيء ينطوي على مردود خاطئ مثله. وافضل مثل له: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (ابراهيم/٢٤-٢٦)

٥- وليست النظم الصحيحة هي التي تتبع تيارات اجتماعية معينة، بل التي تتعرف على سنن الاجتماع وتحدد اهدافه، ووفق تلك السنن تخطط للاهداف "فالعارف بزمانه لا تهجم عليه النوائب". (١)

ولكن يجب على النظام الاجتماعي، لكي يكون واقعياً ان يحدّد بدقة مرحلة الاجتماع التي يريد ان يضع لها الشرائع ثم يضع تلك السنة.

٦- والمجتمع كيان قائم فعلاً، وتستطيع تحديد سمات أي مجتمع من ناحية القوة والضعف، والصحة والمرض، والكياسة والتبلد، والشجاعة

---

(١) تعبير مقتبس من فلسفة القرآن على لسان الامام الصادق عليه السلام.

والجبن، وسائر الصفات البشرية.

ولا يعني هذا سوى ان المجتمع سيضغط على الفرد باتجاه الطابع العام، وهذا الضغط هو بدوره مجموع ضغوط الافراد الذين يشملهم اطار المجتمع.

والضغط قد يرتفع الى مستوى العقاب المادي، فيكون بمستوى الحكومة، وقد يكتفي بالعقاب الادبي فنسميه بالقيم.

إلا ان الضغط سواء كان عقاباً او عتاباً، لا يحول الفرد الى آلة صماء، يستجيب لنداء الجماعة ، بل انه:

اولاً: يمتص بعض ضغط الجماعة بمستوى مقاومته لهذا الضغط ، فإذا كان الضغط مثلاً بدرجة يحمل كل فرد من المجتمع (وهم فرضاً مائة شخص) الى التحدث نصف ساعة حول القيمة التي يقدرها الجميع، وكانت مقاومة الفرد بقدر تحتاج الى نصف ساعة من التشجيع، كان يعني ان هذا المجتمع لا يستطيع سوى دفع مائة فرد آخر نحو تطبيق منهجه، ذلك لان كل فرد يقوم بامتصاص قدر من القوة الجماعية.

ثانياً: يستطيع بعض الصمود امام ضغط الجماعة بمستوى امتلاكه للارادة الحرة التي لا تستسلم لاي نوع من الضغط، حتى يصل الى مستوى سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى، وضحوا بكل شيء في سبيل ايمانهم، مقاومين جميع الضغوط حسبما يقص القرآن ذلك:

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه/ ٧٠-٧٣)

إن المجتمع الذي قاومه هؤلاء السحرة التائبون كان يتمتع بقوة رادعة عقابية، بيد ان المؤمنين ، وهم افراد من المجتمع ذاته، كانوا يتمتعون بالعقل الذي يهديهم الى الحق، ثم بإرادة تحررهم من ضغوط المجتمع والتي عبرت عن نفسها في اقسى العقوبات، ولكنها عجزت عن تحويل الإنسان الى آلة لا تعقل ولا تشاء.

ان هذه النقطة عظيمة، ليست لانها تشكل فقط حجر الزاوية في بناء الإنسان الكامل، بل لأنها تعتبر عدسة ضرورية في مجهر علم الاجتماع، فحين تتجاهل هذه الحقيقة تتخبط في تقديراتنا للاحداث وللاشخاص ولمسيرة الحياة.

٧- والمجتمع بثنائية الخيوط التي تحركه والتي ترتبط بنفسيات المجموعة البشرية التي يتحرك كل فرد منهم ضمن محور الايجاب والسلب، لابد وان يتكون من خيرين واشرار، ولابد ان تكون المقاومة باتجاه الاصلاح او باتجاه الفساد ، هي التي تحدد تحركات هذا المجتمع، فأمام كل فريق ينشد الخير بفعل تفوق الجانب الايجابي في نفسه على الجانب السلبي، لابد ان يقف فريق آخر يقاوم هذا الخير، واذ لايمكن ان يكون الاخيار خالصين من كل عيب، لايمكن

يكون الاشرار مفلسين من كل خير أيضاً.

فان الفريق المقاوم يجد في بعض ما في الاخيار من شر، وبعض ما لديه من خير مبرراً للقضاء على الخير باسم الخير ذاته.

وهذا الخير والشر موزع في البدء بين الناس توزيعاً يكاد يكون عادلاً، فكل منهم يأمر بالخير وينهى عن الشر، ولكنه يعمل بهما فعلاً، وهذه مرحلة الضلالة العامة، وفيها لانجد شراً مستطيراً كما لا نجد ايضاً خيراً خالصاً.

٨- ولابد ان الانسان يبقى على هذه الضلالة التي هي ذاتية بالنسبة الى طبيعته حسبما عرفناها سابقاً، حتى يأتيه من الله نور وهدى مبين، فيصبح البشر فريقين؛ إذ ان فريقاً منهم يشاء بارادته الحرة ان يهتدي ويطهر نفسه من رواسب الشر، بينما يبقى الفريق الآخر على ضلالته، التي سرعان ما يضطر، للدفاع عنها، ان يتحول الى شر محض!!!

كذلك قال الله سبحانه حين قص علينا قصة البشرية الاولى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة/٢١٣)

فهنالك ضلالة شاملة، ثم يهدي الله الناس، ثم يختلف الناس في الهداية.

النظام الاجتماعي

وتوحي فلسفة الاجتماع بنظامه الامثل، الذي فيه الامور التالية:

١- بما ان الانسان ضال بطبيعته لانه بذاته عاجز وجاهل - ولا يقدر ولا يعلم إلا القدير العليم- فكانت الهداية من الله، هداية النبي من الله، وهداية الناس من النبي وكذلك مبدأ العلوم من الكتب السماوية التي هبطت على الانسان لتحرر عقله من الخرافات وتطلقه في آفاق العالم.. وهكذا تكون الهداية والنظام الامثل من الله، وهذا مبدأ الضرورة التامة للرسالة والتي يقول الله فيها:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة/١-٢)

٢- وإذا كان الإنسان بطبيعته عاجزاً وجاهلاً فان حياته تدرج مستمر من العجز الى القدرة، ومن الجهل الى العلم، وقد تكون مواهب الله وسيلة هذا التدرج ، ولكنها ليست كافية لإعطاء المقدرة والعلم للانسان

لو لم يسع هو في سبيل ذلك.

ان هذا التدرج للتواصل هدف الإنسانية في الارض، فهو يهدف منه:

أ- ان يحصل على مزيد من الحرية التي تبرز جوهر انسانيته اكثر فاكثر، وقد لا يكون هدف اسمى من الحرية عند الإنسان السليم.

ب- ان يبلغ آفاق المعرفة.

ج- ان يصبح سيد الارض ومليك ما فيها، فلا تعجزه خشونة المواد عن تكيفها في الصناعات، ولا بعد المسافات عن التهامها في التجارات، ولا تغير الاجواء عن تلطيفها للعيش الهنيئ..و..و

وان النظام الامثل هو الذي يهدف تحقيقه هذه الغايات ويخط طريقاً قريباً اليها.

٣- وإذا كان في المجتمعات خيوط الخير والشر سواء، فليس من صالح الاخيار بل ولا من صالح الاشرار ايضاً، ان نسمح للاشرار بقيادة الناس جميعاً، إذ يعني هذا فرض بعض الشرور على الاخيار وانهاء فرص الاصلاح للاشرار، بل ينبغي فرض قيادة الاخيار وتقليل فرص الاشرار انّى استطعنا الى ذلك سبيلاً، وهنالك لا نزيد من فرص الخير للجميع فقط، بل ونشجع كل ذي شر ان يتحول الى خير ايضاً. فيكون النظام الامثل ذلك الذي يسير بالأمة قدماً نحو قيادة الاخيار ابداً، اما الانتخابات العامة فلا يمكن ان تكون امثل نظام، لانها تعطى فرص القيادة للاخيار والاشرار جميعاً.

وكذلك النظام الحزبي الذي لا يجعل في برنامجه شروطاً حاسمة،

تبعد دخول الاشرار في صفوفه.

ولن تكون القيادة من حق احد ، إلا من خلصت نفسه عن رواسب الشرور، وكان مثالاً للعلم والورع، وهنالك ايضاً ترتبط قيادته بمدى التزامه بالمثل الخيرة.

وإذا عدنا الى المبادئ الفلسفية الخالصة التي يذكر بها القرآن، نرى الطاعة لن تكون الا لله ولرسوله، ولمن اختاره الرسول ثم لمن امر الله باتباعه، ذلك لان الله هو الحق الذي بيده كل شيء، فلا يمكن ان يطاع غيره إلاّ من أمر بطاعته وهل يأمر الله بطاعة من لا يصلح للقيادة المثلى؟

وحتى حين يأمر بطاعة فرد فانه يجعل طاعته باسم الله سبحانه ، وذلك على اساس ان جانب الفرد الايجابي فقط صالح للقيادة، فجانب رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجانب ولاية الامام وجانب فقه وورع المرجع وجانب وكالة المأذون من قبل المرجع، هذه هي الجوانب المطاعة القائدة في الأمة. وليست الجوانب السلبية، فالجهل والعجز والضلالة الذاتية، ليست من مؤهلات القيادة، وان كان لايخلو من بعضها البشر، حتى الرسول يؤمر:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف/١١٠)

ولذلك لا يمكن ان يتحول البشر الى إله او نصف إله، ولا يمكن ان يطاع بصفة ذاتية، وبصورة دائمة او في حالة الانهيار المبدئي.

والعمل في سبيل اقامة النظام الأفضل لن يكون بطرق ملتوية، مادام

العمل هذا لا يعني سوى دعم جانب الخير في المجتمع، وخذلان جانب الشر، إذ ان الطرق الملتوية ستكون في النهاية دعماً لقضية الشر في المجتمع.

ومن هنا؛ فان السبيل الوحيد لاقامة حكم الخير في الحياة هو السعي الخيّر ، وكلما كثر الخير كلما ضعف الشر، وكثرت فرص الحياة السعيدة، ولن تكون قشرة الحكومة إلا آخر ما تتبدل في الأمة، بفعل رجحان كفة الخير في ميزان المجتمع فـ(كما تكونوا يـولى عليكم) قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الاسراء/١٦)

فحيث تقل فرص الخير في المجتمع يتكاثر الشر وتتوالى فرصة قيادة الطواغيت الذين اترفوا في الحياة فاسرفوا في الشرور فيجر هؤلاء الويل على الأمة جميعاً.

فلسفة التاريخ في القرآن

وللتاريخ فلسفة قرآنية نابعة من ذات الفلسفة العامة، التي تشمل فيما تشمل تطورات حياة الإنسان، فما هي تلك الفلسفة؟ قبل ان نبينها لابد ان نعرف ان التاريخ شريط مجسد لسلسلة الأسباب والنتائج، والتي تعكس بوضوح سنن الحياة ، وطبيعة اثرها في حياة البشر.

فالمادة الميتة قد تجري عليها عدة تجارب تعطي في النهاية رؤيا واضحة عن طبيعة السنن التي تنطوي عليها هذه المادة، بينما الإنسان الحي لا يمكن ان تجري عليه هذه التجارب.. لا سيما فيما يخص نوازعه وآثارها وطبيعة التشابك بينها من جهة، وبينها وبين نوازع الآخرين من جهة اخرى، فلا نستطيع بالضبط معرفة مدى تأثير الاقتصاد الاشتراكي في تقدم او في تأخر الحضارة البشرية، وذلك باجراء تجارب مختبرية على الأمة.

إلا ان تاريخ الاشتراكية هي التجربة الحية لذلك، ذلك ان التاريخ

مدرسة عظيمة تتعلم فيها طبيعة البشر وواقع السنن التي تتحكم في حياته، بيد ان اولى مبادئ أية مدرسة الانتماء إليها بصفة التلميذ لا بصفة الاستاذ، وكذلك التاريخ لا يمكن فرض اتجاه معين عليه، والافتراض سلفاً بان الاقتصاد او الدين او السياسة او ما اشبه، هو الموجه لمسيرة التاريخ.

كلا! بل من الضروري ان ندع التاريخ يتكلم ليفصح لنا عن حقائق باهرة. ان القرآن يكرر التوجيه الى طبيعة (العبرة التاريخية) والعبرة تعني محاولة العبور من الحادثة الى جذورها، ومن الواقعة الى اسبابها، ثم تطبيق تلك الحادثة بما يتشابه وإياها في الحياة البشرية المعاصرة.

يقول الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف/١١١)

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الاعراف/١٧٦)

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود/١٢٠)

إن فلسفة القرآن في التاريخ هي في حقيقتها بعض الدروس التي يجب ان تتعلمها من التاريخ ذاته، وهي تحدّد في الحقائق التالية:

١- البشر واحد، من واحد، وتجري عليه سنن مشتركة، يقول الله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الاعراف/١٨٩)

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ (الانعام/٩٨)

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (النساء/١)

٢- ومنذ آدم وابنائه، وهم بداية سلسلة الإنسان، نجد الصفات مشتركة والأسباب والنتائج متشابهة إن لم تكن في مظهرها أيضاً فلا اقل في جوهرها الثابت لدينا.

فآدم عليه السلام الذي ارتكب اول خطيئة بدافع الطمع والغرور.. وابنه الذي ارتكب اول اعتداء في تاريخ الإنسان وقتل اخاه بدافع الحسد والرئاسة، والندم الذي ساورهما، والعقوبة التي لحقت بهما في هذه الدنيا وفي الآخرة.. لكل ذلك اسباب ونتائج مشتركة بينه وبينه !! لذلك نستطيع قياس ذلك علينا تماماً.

٣- إن تطور الجنس البشري في تاريخه لم يكن بحيث يقطع علاقة القربى بينه وبين ماضيه.

كما ان اختلافه مع بعضه ليس مما يؤثر في التفاعل مع بعضه، وتبادل التجارب والخبرات في اقل التقادير.

إن العنصرية تعتبر خرافة ساذجة في فلسفة القرآن التي تقول:

﴿ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات/١٣)

٤- والخط العام الذي يعكس تطورات المجتمعات البشرية يبدأ من السعي الدائب للإنسان، باتجاه غاياته المادية والروحية، إلا ان التباس الحياة يغر الامم باختيار الطرق الميسورة، فينحرفون عن الصراط المستقيم كلما زعموا بانه بعيد وشاق.

فكما ان الفرد الذي اؤتمن بقنطار ذهب تغريه هذه الثروة عن العمل

الشاق في سبيل الرزق الحلال فيخون امانته ، فكذلك الامم تحسب ان الاستغلال والظلم والانقضاض على الشعوب المستضعفة. هو الطريق القريب الى الرخاء العميم. بينما التعايش والتنافس الحر يبدو لهم طريقاً بعيداً وشاقاً نحو السعادة، ولهذا ينشأ الصراع، لا بين الطبقات في امة واحدة فحسب؛ بل بين الامم ايضاً.

وتتفاوت الامم حضارات حضارات، و كل امة تتوزع طبقات طبقات، وتفترق كل طبقة فئات فئات، وهنا تكتب نهاية المسيرة بيد أمة قوية، وداخل الامة بيد طبقة قوية ثم فئة ثم فرد يجسد تلك الفئة.

ومن هنا يبدأ الصراع الأبدي بين هذه الفئة وبين مثيلاتها داخل الطبقة الواحدة من جهة ، وبين هذه الطبقة المُستَغِلّة وسائر الطبقات المستغْلَة من جهة اخرى، وبين هذه الأمة المستضعِفة من جهة، وبين سائر الامم المستضعَفة من جهة اخرى.

وبفعل حدة الصراع تقوم في الداخل الثورات وفي الخارج الحروب الضارية، التي تنتهي بدمار الظالمين. قال تعالى: ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ (الشعراء/٢٢٧)

وبازاء هذا الخط الواضح يسير خط آخر، يمثل خط صعود الانسان، حيث تنبعث بشائر حضارته، ذلك ان الفئة المستغِلة او الطبقة المستغِلة تقاوَم منذ البدء لا من قبل المستغَلين، إذ لا تكون لهؤلاء بصيرة كافية بمعرفة خلفية الأحداث، وليسوا بمستعدين للدفاع عن انفسهم، وانما ايضاً من قبل فئة من المؤمنين بالله؛ الذين يلتفون حول نبي عظيم بعثه الله

لانقاذ الإنسانية من شرورها.

إن هذه الفئة تبصر بالنور الذي انزل الله الى البشر.. تبصر عاقبة الظلم وتهتدي الى حقيقة السنن التي تسيّر حياة الإنسان، ثم تحاول هداية الإنسان نحو الطرق المثلى، التي رغم طولها وبعض المشقة فيها، فهي خالية من الخطورة التي تكشف طريق الضلالة.

بيد انها تصطدم بتيار الزمن العنيف الذي يغذيه اغترار الناس بالطرق الأسهل والأقرب الى الرخاء.

وهذه الفئة هي التي تمثل جوهرة الإنسانية ، إذ لا مصلحة ذاتية لها في مقاومة المترفين.. مع ما تكلفهم هذه المقاومة من جهود وتضحيات.

أما الطبقات المنافسة او المستغَلة التي تحارب الطبقة الحاكمة، فإنها في حالة نجاحها تتحول هي الأخرى الى طبقة مستغِلة.

وفي القرآن قصص هذه المقاومة الرائعة التي تثبت هنا نموذجاً منها، والذي نقسمه الى مراحل لسهولة الاشارة إليها بعدئذ.

١- ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء/ ١٠-١٥)

٢- ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ *

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء/١٦-٢٢)

٣- ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الشعراء/٣٤-٤٢)

٤- ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء/٤٥-٥٠)

إن قصة موسى التي تمثل الخط الايجابي النير الذي يشع على طول شريط التاريخ، تبدأ هذه القصة بالوحي الذي يهبط على قلب تقي تتكرس مصالحه جميعاً في ترك معارضة النظام السائد، فهو من جانب فرد واحد لا طبقة له ينتمي اليها.. ثم انه مجرم في حساب الحاكمين، وهو قد ربي في حضن فرعون، فليس من مصلحته ان يعارضه، الا انه يؤمر بالدعوة الى الحق الذي انحرف عنه الحاكمون الذين عبّدوا بني اسرائيل واستغلوهم ببشاعة متناهية.

صحيح ان فرعون قد حفر قبره بظلمه بسبب استغلاله لبني اسرائيل، وجعل اهل الارض شيعاً يستضعف طائفة منهم، وصحيح كذلك ان هذه الطائفة هي التي تحولت لهيباً من الحقد الذي التهم فرعون وجنوده، وكان ان وعد الله ووفى بوعده الصادق ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص/٥-٦)

ولكن ذلك لم يكن كل القضية، بل هنالك الخط الايجابي البنّاء الذي لولاه لما كان فرعون يندحر امام بني اسرائيل، ذلك هو انبعاث موسى من عند الله والذي جاء بالفكرة الحضارية، والقيادة الرشيدة، والنصر الغيبي.

ثم طالب موسى فرعون بانهاء الاستغلال العنصري الذي كان يمارسه ضد بني اسرائيل، وهنا يكون طبيعياً تعاون الطبقة المظلومة مع منقذها الذي يتحرر عن كل مصلحة ذاتية، بنفس المدى الذي يكون طبيعياً مطالبة الرسالة، تحرير الطبقات المستَغلة، بيد انه ليس من الاستغلال تنشأ الرسالة، بل من الله ثم بامر من الله تتجه الرسالة في البدء ناحية التحرير من نير الاستغلال.

وبهذا تفترق نظرة الاسلام الى التاريخ من نظرة الفلسفات البشرية، فالاسلام ابرز دور الانسان الايجابي في تحرير نظرائه من الاستغلال، بينما الفلسفات الاخرى حاولت ربط حركات التحرير بآلية الحياة، مما اخفت دور الانسان كعنصر موجب (فاعل)، واظهرت دوره كعنصر قابل (منفعل) فقط.

إن فرعون ذكّر موسى بمصالحه الشخصية، وقال له: ألم نُرَبِّك فينا وليداً؟ ولكن موسى عليه السلام: هزأ من فرعون وقال: تلك نعمة تَمُنُّها عليّ أن عبّدت بني اسرائيل، موسعاً بذلك حدود القضية، حتى تشمل بني اسرائيل جميعاً، الذين طالب تحريرهم بصورة كاملة.

في البند الرابع نجد فرعون يعتمد على القوة المادية، التي يمتلكها ويثير قومه بلغة الطبقة المستغِلة، ويحذرهم من مغبة التعاون مع من يريد ان يخرجهم من ارضهم.

بيد ان الوضع يختلف في البند الخامس، حيث نجد طائفة من السحرة يلقون لله ساجدين، ليس بدافع اقتصادي، إذ انهم قد وُعدوا الاجر لو كانوا الغالبين، وسجودهم لله دون فرعون يضرب مصلحتهم هذه، كما لم يكن ذلك بدافع طبقي، إذ المفروض انهم من الطبقة المستغِلة وانهم كانوا سيصبحون من المقربين، بل بدافع الوعي الرسالي الذي يطلق عقولهم فيؤمنون بالله، ويضحون في سبيله. وبتضحيتهم تبدأ نهاية فرعون.

من هنا نعرف ان الحركات الاجتماعية في التاريخ لا تتبع خطاً واحداً.. بل خطين متوازيين ، وقد يلتقيان ساعة يهدفان حقيقة واحدة ، ولكن سرعان ما يفترقان بطبيعة الفرق بين الغايات البعيدة التي تنشدانها.

فواحد من الخطين يبدأ من الجانب السلبي في الانسان، حيث المصالح المتقاربة، وحيث دورية الاستغلال، بينما ينشأ الخط الثاني من

الرسالة السماوية التي تحيي عقل الإنسان وترتفع به عن مستوى المصالح الى مستوى الحق والخير الشامل .

ملخص نظرة القرآن الى التاريخ في كلمتين:

١- الإنسان الذي نجده عندما نكتشفه في التاريخ، فهو لذلك عبرة ومدرسة.

٢- وبما ان للإنسان جانبي الايجاب والسلب، فان حركة التاريخ تدور في حلقتين، حلقة المصالح وحلقة الرسالة.

السمات البارزة للفلسفة

تعرفنا فيما مضى على عناصر الفلسفة القرآنية مـن الواجهـة الداخليـة، وبقي علينا رسم وتوضيح صورة خارجية لها.

ان سمات هذه الصورة كثيرة، إلا ان ابـرز مـا فيهـا ثـلاث: الواقعيـة، والشمولية، والعقلانية:

١- الواقعية:

فالفلسفة القرآنية الواقعية تؤمن بكل ما هنالك من حقائق:

أ- تؤمن بالله الحق، وتؤمـن باسمائه، وتؤمـن بالكائنـات علـى انهـا حقائق مشهودة.

ب- وتؤمن بفـوارق الحقـائق عـن بعضهـا، فلذلـك تؤمـن بالانسـان كانسان وبالحي كحي والنبات كنبات والجماد كجماد، بل تؤمـن بـان كل فرد هو فرد له ماهية خاصة به.

ج- وفي الانسـان -كما يؤمن القرآن- جوانب سلبية واخرى ايجابية،

وينبغي ان تكون خطط الحياة منطلقة من التصديق بالجوانب السلبية، حتى يمكن علاجها بلا تورط في سلسلة من المثل الطوبائية.

ومن الفلسفات ما تنكر الله؛ فهي لا تؤمن بالواقع ككل فلا تتسم الا ببعض الواقعية، تماماً كالفلسفات التي تنكر الكائنات، او تزعم انها هي الله سبحانه، فهي ايضاً تكفر بالواقع كله.

ومن الفلسفات ما تؤمن فقط بجوهر الاشياء، وتزعم ان مظاهرها باطلة فلذلك لا تؤمن بواقعية كل شيء بقدر ما تؤمن بانها ظلال للحقيقة الكبرى.

٢- الشمولية:

الإنسان ينظر من زاوية معينة، بينما تتسم نظرة القرآن بالشمول، فهو حين يأمر بشيء لا يفرط في تقديره لهذا الشيء او تجاهله الاشياء الاخرى التي ينبغي ايضاً العمل بها.

وفي حقل الفلسفة؛ يهدي القرآن الى كل الحقائق، دون ان يفرط في دور إحداها على حساب الاخرى، فالدنيا حق والآخرة حق والنار حق والجنة حق والشهوات حق والعقل حق والفرد حق والجماعة حق. وفي حقل المنطق (ميزان التفكير - ومنهج المعرفة) وحول العوامل التي رأت كل فلسفة ان كل واحد منها مثلاً تمنع المعرفة، قال القرآن ان جميعها مؤثرة في حجب الحقيقة عن الإنسان.

فبينما قال اتباع المدرسة السلوكية بتأثير الفعل المنعكس، واتباع المدرسة التكوينية بتأثير مكونات الشعور، والمدرسة الوظيفية بتأثير قانون التكيف مع البيئة، والمدرسة الترابطية بتأثير قانون التداعي،

والمدرسة الفرضية بتأثير الغرائز المختلفة في نفسية الانسان، وبالتالي في منهجية تفكيره.

اقول: بينما اكتفت كل مدرسة من هذه المدارس بناحية خاصة وقالت انها مانعة الفرد عن الحقيقة. فان المدرسة القرآنية آمنت بالحقيقة كلها، وذهبت الى ان لكل واحد من العوامل السابقة بعض التأثير في النفس ويشاطرها العقل في البعض الآخر.

٣- العقلانية:

الكائنات خلقت - لدى المدرسة القرآنية- لهدف معين ، وان وراءها تدبير معلوم، والإنسان بين المخلوقات اكثرها التصاقاً باهدافه الكبرى.

ولذلك، فالعقلانية طابع بارز في الفلسفة القرآنية، فلا ندخل الجو القرآني حتى نلاحظ كل شيء منظماً موزوناً ، قد خلق ليؤدي دوراً مقصوداً، ولا نخرج من هذا الجو المليء بالنظام والتعقل حتى نجد انفسنا في متاهة الفلسفات المادية تتراكم فيها الاحجار بفوضى ، وينبت الزرع ليضر، وتهب الرياح لتؤذي الناس.

والعقلانية منطلق الفكر الإسلامي في تقييم الإنسان وتنظيمه ودفعه باتجاه رسالته في الحياة.

وكما سبق، فإن هدفية الحياة تسبب الإيمان باليوم الآخر وبالرسالات، ولا يمكن الإيمان بالهدفية هذه دون عقلانية الكائنات.

من هنا؛ لا يمكننا فصل أي شيء في القرآن عن غايته، ولا يمكننا

تصور أي عمل دون تصور عاقبته التي تعكسه، ان خيراً فخير وان شراً فشر.

بهذا نكتفي في عرضنا الخاطف لفلسفة القرآن الحكيم، نرجو ان نكون قد وفقنا لذلك، ونأمل من الله ان يجعلها هادية لنا وللقارئ الكريم.

الفهـرس

الفصل الاول: بحوث في أدب القرآن الحكيم

الفصل الثاني: فلسفة القرآن الحكيم